مجموعة قصصية

مُراد مَاهر

أَوْلِيَاءٌ كَاذِبُون

تويا

مَجْمُوعَةٌ قَصَصِيَّةٌ

مُراد مَاهر

إهداء
إلى كلِّ مَن ظنَّ نفسَهُ يومًا نبيًّا واصطدم بغيرِ ذلك....
هوّن عليكَ، فالنبوةُ ليست دائمًا بالمباشَرةِ التي تعلَّمناها.
إنها تحملُ بين طياتها قُدرتَكَ على الاختلافِ، موهبتَك في التأثير، وقدْر ما تُضيف من تجديدٍ أصيلٍ، وفي كلِّ الأحوال سيظنه الناسُ في بدْئهِ جنون.
أكمِلْ ..... فأنت تستطيعُ أن تكونَ مجنونًا.

(1)
الجَدُّ الأوَّلُ
يَبْدَأُ ...

عندما جاء أمرُ الإلهِ الأعظم بمثولهم مجتمعين في حضرته، انتفضتْ بلدتُنا بأكملها، كبارُها وصغارُها، أسيادُها وعبيدُها، لم يعتدْ فرعون أن يأمر باستقدام كلِّ هذا العدد من علماء القرية أمامه، مع قطع كل هذه المسافة وبهذه السرعة.
أنباءٌ تتردد على ألسنة الحرس القادم لاصطحابهم مفادها خلافٌ بين الإله وولده الذي يعتنق السحر ويمارسه على أبيه الرب الأعظم.
همس الناس في آذان الناس: "إن كان الرب لا يستطيع أن يُهذب عقوق ابنه فكيف يحكم ويتحكم في العباد، وإن كان الرب قد قرَّر أن يستعينَ بأعيانهم وكبار علمائهم، فأين مفهوم الربوبية التي حاول الملك فرعون وآباؤه من قبله تأصيله في عقول وقلوب عبيدهم".
في النهاية تبقى كل التعليقات في حيز الهمس المكبوت والخواطر المُعتمة.
قيل بأن الملك طلب الآلاف من السحرة من كل أرجاء الوطن.
معروفٌ عن رجالات بلدتنا بأنهم أمهر السحرة بين أقرانهم، بمقدورهم تحريك الجبال إن شاءوا، وبناء المعابد دون عناء أو رجال إن شاءوا، وعُرف عنهم بين أقرانهم بأنهم يُحبون المال، ويسعون دائمًا لصنع الخير، ولا يستخدمون قوة سحرهم إلا في خلاص الناس أو فك أسْر النفوس من قيْد الشر "إلا من صبَأ منهم عن الحق".
في الواقع كان كل رجالات قريتنا يشتغلون بالسحر ويتقنونه، كل مولود في قريتنا يُخصَّص له قبل تسميته عصي وحبل، هي أدوات سحره والنبتة الأولى التي عليه أن يُنميها بالتعلم والتدبر وذكائه الشخصي، وما أن يبلغ الصبي مطلع الرجولة حتى يبدأ في تعلم قواعده بفخر وإتقان.
استعد رجالُ البلدة لتلبية أمر الرب الملك، إلا من اثنين، كنت أولهما، والآخر كان الأكبر سنًّا بين الجميع، وكنيته العجوز، ادَّعى المرض وقُرب الأجل وانعدام القدرة على قطع المسافات أو حتى ممارسة الطقوس الواجبة للسحر.

يُردد أهل بلدتنا في كل محفلٍ أنني أمهر شبابها في صنيع السحر رغم كوني الأصغر سنّا، تنبَّأ لي الكثيرون بتسيُّد زعامة الصنعة ليس فقط في بلدتنا، بل في كل بلدات الدولة.
قررتُ الهروب، حملت عصاي فوق حُلمي وهربت من البلدة قبل أن يتمكن مني رسُل فرعون، اختفيت عن أعين الجميع، وتتبعتُ قومي، المُساقين إلى الميدان الأعظم، المأمورين بهزيمة المارق، الآملين في مكافأة الملك، توقف بهم الحراس في ميدان الزينة "ساحة الإله الأعظم"، حيث يتجمع الناس ويجتمعون من كل أرجاء الدولة يتأهبون للاحتفال بأعياد الربيع والفيضان مزدانين بالألوان والمُبهجات.

.....

لستُ أدري تحديدًا ما الذي دفعني للهرب، الكل يعلم أننا بلدةٌ مأجورةٌ، أمرنا فرعون بتعلم السحر منذ زمنٍ ليستخدمنا، لم يعترض آباؤنا، لا يستطيع أحدهم الاعتراض من الأساس، لكن أن تعيش في قريةٍ كل رجالها سحرة فهو أمرٌ كفيلٌ بأن يصنع منكَ شخصًا مرتابًا من كل شيء، مُهدَّدًا من كل جانب، تحتاج دائمًا لتطوير أدواتك لتصبح أكثر حِرفيةً وتأثيرًا في محيطك، وأكثر أمانًا لتستكملَ مسيرة العيش.
سمعتُ همسًا يتجوَّل على ألسنة الجموع بأن ابن الرب العاق يستخدم السحر.
إذن فهو أقوى من أبيه، أو ربما يستحق الربوبية أكثر من فرعون ذاته، أعلم أنه ليس من صُلبه، لكن ما دام تبناه الرب فهو إذن مُشبَّعٌ بنوره.
انخرطت مختفيًا وسط العوام مترقبًا، وقررتُ الانتباه والتحفز، والتدخل إذا استدعى الأمر.
أبي وعمي وجدي وخالي وأخي من بين السحرة الذين يستخدمهم فرعون في هزيمة ولده، ربما يعجزون، وربما أظهر أنا من بين الجميع لأنتصرَ لاختلافي وتفردي وأنال ما وعد به الرب من نعيم لغالب الكافرين، موقنٌ بأن الناس حينها سيوقرونني، ويهابون جميلي على بلاط العرش، ويتوددون لعلمي حتى يتعلموا.
يظهر الرب من فوق الناس والميدان، تتناثر الورود والعطور في كل الأرجاء، يجلس على عرشه الأكبر، ينحني الناسُ ما بين ساجدٍ وراكعٍ، يصطف كبار الدولة ووزراؤها في جانب، والكهنة وخدمة الآلهة في الجانب المقابل، بينما يقفُ أهلي في صدارة المشهد، مصطفِّين في انتظار الإذن الملكي بالبدء في هزيمة الكافرين.
يظهر أخيرًا ابنُ الرب اللقيط، مُحاطًا بالمئات من أتباعه ومريديه والمؤمنين بما قال ويُقال، ويُحيط بالجميع حراس الملك وجنود جيشه.
الملك يُشير بصولجانه لبدء المناظرة السحرية ما بين قومي والابن الصابئ.
دقائق، وتُشرق النتائج، ينتصر الابن العاق، يترنح الأهل، يغتاظ فرعون، ينقلب السحر على الظالم، يُعلن الأهل اتباعهم دين الكافر بفرعون ويتبعونه، يقتلهم فرعون من فوره، يُطارد العاق ومريديه حتى حافة البحر، يترجَّل المتمرد الساحر على صفحة الماء بناسه وأتباعه "هو بلا شك ساحر على نحو لم نتعلمه"، يلاحقه فرعون بجنده على الجسر المسحور، فينهار الجسر ويغرق الإله ومن تبعه.
أقف على الشاطئ أحاول استيعاب الخيال، تقذفني الأمواجُ بملايين القطع الذهبية الغارقة مع الإله الغارق، أتقبَّل تتابع الأحداث وكأني أعلمها مسبقًا أو معتادًا على مثلها، أهرب مهرولًا تجاه بلدتنا محملا بالثروة الناجية.

يستقبلني النساء والصبية والأطفال وعلى رأسهم العجوز، أخبرهم بموت الأهل، ويُخبروننني بما نمى إلى علمهم عن موت الإله وجنوده غرقًا.
قرَّر العجوز إعلاني كبيرًا للبلدة وأكثر أهلها حكمة إذ رفضت تلبية نداء الغارق وأبقيت على ذرية السحر المقدسة، أعلن العجوز كذلك أني زوجٌ لكل نساء القرية ونادى في الناس مُبشرًا بأن بلادنا ستسعد بتعديل اسمها لتحملَ اسمي "كومانور".
بنيت بجزءٍ من أطنان الذهب معبدًا كبيرًا، ودعوتُ الناس لعبادتي، لم يعترض أحدهم، فبلادنا باتت بلا إله..... حتى حين.

(2)
الكَاملُ المنقُوصُ جبرًا.....

- (كومانور)....
كم هو مرهقٌ أن تكون ملكًا، كم هو مُقلقٌ أن تكون إلهًا.
عُدت إليهم بتلال الذهب.
رأيتُ كل شيء في رحلة تتبعي للمناظرة الكُبرى بين فرعون وأهلي من جانب، وبين ابنه بالتبني الكافر به من جانبٍ آخر، ابتنيتُ معبدًا كبيرًا مُرصعًا بالمعدن الأصفر النفيس، وأمرت الجميع بعبادتي، وأطاعني الناسُ بلا تفكير أو تردد، فالذهب وسيلة إقناع غالبًا ما تُجدي في إخضاع العقول "إن وُجدت".
ثمة اتفاقٌ ضمني تأصَّل بيني وبين "العجوز الساحر"، ذلك الذي رفض مباراة السحر الكبرى في ميدان الزينة الأكبر، ارتضى بألوهيتي وارتضيت أن أهبه المال والسلطان، فصار وزيري الأول وواحدًا من أغنى أغنياء الكون.

"التأصيل للمُلك شيء مُرهقٌ وملئ بالمخاطرة وعثرات الفشل، الحفاظ على الذهب يحتاجُ لليقظة والحرص والريبة من كل شخص وكل شيء، أما أن تؤصل لألوهية ومُلك ومالٍ في آنٍ واحدٍ فهو أمرٌ لا يستطيعه سوى إله... وأنا في حقيقتي لستُ كذلك".

.....

أمرٌ إلهي :

"من كومانور الأعظم إلى وزيره الأول "العجوز الساحر"، المأمور بانتخاب رضيع من أهل البلاد، جميل الوجه، عظيم النسب، يتولاه الكهنة والحكماء والعلماء بالحماية والتعلم وانتقاء كل ما يخصه ويُعينه ليتهيأ تمامًا لمهمته المقدسة".

.....

إذا كانت الأرضُ مِلك يميني، والعباد تحت أقدامي، والأنهار والبحار تسير وتفور لإرضائي، فكيف لا أخاطب قاطني السماء ليعلموا بأن هناك إلهًا جديدًا تم اختياره ودعمه بالذهب من إله الآلهة الأعظم، ليرث ألوهية الخاسر الأحمق فرعون.

نعم.. قرَّرت أن أخاطب أهل السماء لاتباع مذهب أهل الأرض والبدء الفوري في عبادتي.

ربما كان الأمر برمته حيلة / فكرة ابتكرتها لتمكين ألوهيتي من عقول الناس، موقن بأن انشغال العامة بأمر مخاطبة السماء لعبادة إلههم الجديد سيُرسِّخ مفهوم التقديس ويمنع أية محاولة للنقد أو التفكير.

في الواقع لم أكن على يقينٍ كاملٍ بقدرة السِّحر على خلق وسيلةٍ حقيقيةٍ لمخاطبة السماء، لكن الألوهية حتمًا لا تعرف صعبًا ولا تقتنع بالمستحيل.

وعلى الرغم من تيقني التام بأني لستُ إلهًا كما أوهمتُ الناس مستعينًا بكنوز الأرض التي أتتني صاغرةً، لكني في الوقت ذاته أؤمن بأن إله الكون الأوحد "والذي ببدهية التفكير والتخمين يرتقي بعرشه فوق حدود الأرض وربما السماء"، باختياره لي لأرث أنهار الذهب ومُلك الغارق فقد وهبني بشكلٍ أو بآخر انتدابًا لألوهيته على الأرض، ولستُ أنكر كذلك بأن فكرة مخاطبة السماء قد تبدو له تمردًا مني إذ أتطاول على الحيز المُطلق لربوبيته.

أعتقد أنني أستطيع لاحقًا أن أشرحَ له هدفي من حيلتي وأقدم له من جديدٍ قرابين الخضوع والخنوع من إلهٍ منتدبٍ إلى إلهٍ مُطلَقٍ، وأظنه غفورًا.

.....

كعادة الكومونياريون، ما بين حقبةٍ وضحاها يُفاجَأون بإطلالة جدهم الأكبر كومانور من باطن أرضهم، إما بمكافأةٍ من كنوزه المدفونة أو برسالةٍ مُشفرةٍ تحملُ ما تحمله من تأويلاتٍ تكفي لملء مُجلدات.

من تحت أنقاض بيت الشيخ مليم الحلباوي، وجد العمال جداريةً منقوشًا عليها بلغة القدماء رسالة من الرب كومانور إلى عباده القابعين في السماء محمولةً على أجنحة رسوله المُلقب بـ "طائر الرب".

"السلام على عبادي في الأعالي.

أبعث إليكم برسولي الأقرب ومعبودي الأغلى والأوفى والأنقى، حملت على أكتافه رسائلي، وفي قلبه دعوتي، وفي عقله أحكامي وجنتي وعذابي، احملوه على أعناقكم، وافعلوا ما يأمركم به

باسمي وبمشيئتي، وأتوا إليَّ صاغرين عابدين، واحمدوا لي فضلي عليكم أن أهديتكم عطفي وهديتكم إلى سبيلي".
وكعادة الكومونـاريون يلجأون للكرماني أفندي أو الباشكاتب ليترجموا لهم نقوش الأجداد.

.....

(الرسول).....
لم أعرف لي اسمًا ولا نسبًا، وعيت على الدنيا لا أعرف سوى الوزير الأول "العجوز الساحر" وبجواره حكماء الدولة يُعلمونني ليل نهار، ولقاءٌ شهري أمثُل فيه في حضرة الملك كومانور، يطمئن على صحتي وحالي وتعلُّمي فنون الحياة والقوة والسحر.
الجميع يهيئونني لانتظار المهمة المقدسة، تلك التي خُلقت لأجلها، واصطفاني الملك ووزيره للاضطلاع بها، لم يُسمح لي الاختلاط بالعوام، ولم يُسمح لي كذلك برؤية البلاد أو الدروب أو النهر، تعلمت وجود كل شيء، وعرفت كل المعروف عن كل شيء، وأتقنت السحر نظريًّا ولم أمارسه على أحدٍ، ولا على شيء.
أخبرني الوزير "العجوز الساحر" بأني ابن الإله المُختار، وحامل رسالته إلى أهل السماء، وأخبرني بأن موعدي قد اقترب.

****

(كومانور).....
أعترف بأن فكرة دعوة السماء للامتثال إلى معبود أهل الأرض كانت مُزحةً صبيانيةً في بدايتها، أطلقتُها عابثًا، وأعترفُ بأن الأمر بات واقعًا لا أجرؤ على العدول عنه، وأن الناس قد حوَّلوا الفكرة العابثة إلى مشروعٍ قومي، وحلمٍ وطني، وترنيمةٍ عقائديةٍ، وأعترف أنني الآن في مأزقٍ شديد الخطورة.
وأعترف بأن المزيد من التسويف لم يعد مقبولًا، وأن عليَّ البدء في إعلان القرار.

****

نادى المنادي في الطرقات والمعابد والحقول والأسواق:
"الإله كومانور الملك الأعظم يأمر الجميع بالحضور في ميدان الاحتفالات الملكية صباحًا لحضور حفل وداع طائر الرب ورسوله إلى أرض السماء، إيذانًا بتحقيق حلم عباده بإخضاع أهل السماء لمُلكه وعظمته".
ابتهج الناس، وتعانق العوام، وانتفض الحلم الساكن في أرحام الأمل والشوق بداخلهم، بينما وقف الوزير العجوز مبتسمًا بخبثٍ ولا مبالاة.

****

نادى المنادي في الطرقات والجوامع والغيطان والأسواق:
"يا أهل كوم النور، العمدة فهيم والأعيان داعين أهل البلد تِمَّا على وليمةٍ كبيرةٍ في الساحة الفاضية علشان نستقبل بعثة الخواجات اللي جايين مع الحكومة يفكوا طلاسم رسول الجد كومانور للسما".
واستقبل الناس الدعوة بخليطٍ عجيبٍ يحمل بعضًا من الاستهزاء وشيئًا من الفضول وكثير من الاستهجان وتبنى شيخ الجامع تكفير الفكرة من أساسها، لكن في النهاية اتفق الجميع على حتمية مشاركة بطونهم فيما تقدمه ولائم الأثرياء.

****

(كومانور).....
اكتمل الجمع، وخرجتُ عليهم بكامل أُبهتي وصولجاني وزينة عرشي، وكشفت النقاب عن رسولي الذي حجبته عن أعينهم لسنواتٍ، ألبسته رداءً من ريش نعام أبيض، وأطلت قامته بوقوفه على قدميْن خشبيتيْن يغطيهما الريش، تجعله يعلو أنظار الناس بأمتار، وصنعت له جناحين يشبهان أجنحة الصقور.
وكان لابد وأن أبدأ مراسم التفويض.
قرأتُ على رسولي أمام الناس رسالتي إلى أهل السماء، وأمرته بالذهاب برفقة الوزير العجوز إلى أعلى بقاع الجبل المقدس، حيث تتصل السماء بالأرض في عيون الناس، وأن يفرد جناحيه فوق الجبل لسبعة أيام حتى يطيرَ صاعدًا إلى عبادي في الأعالي.

****

(العجوز الساحر)....
اصطحبتُ الرسول إلى أعلى الجبل، وأسقطته من فوقه بأمر الملك، وعدتُ إلى الناس أحكي ما لم يحدث، وما أمرني به كومانور العظيم، وأشرفت بعدها على نقش التأريخ على الجدران والجداريات والقبور.

****

تجمَّع الناس قاصدين ذبائح الأعيان، وانتظروا المؤتمر الصحفي للخواجات "فقط على سبيل المجاملة".
حكى الخبراء ما ترجموه واستنبطوه واستنتجوه من حكاية طائر الرب، رسول الإله كومانور الملك إلى عباده من أهل السماء، مكتوب على جداريات الجد الأكبر:
"وفرحت السماء بطائر الرب المُختار، فرد أجنحته البيضاء في مهب القمر، فارتفعت به قمة الجبل الأعظم، ودنت له السماء بمن عليها، وتقابلا في بحر الفضاء المقدس، وتلا الرسول رسالة الرب، فخضعت السماء، وانهمر المطر، وامتلأ النهر حتى طفت البلاد على تلال الخير، فتجلى كومانور للسماء ملوحًا، حتى انحسرت المياه، وأصدر أمره الإلهي ببقاء الرسول في السماء حتى يصله أمر العودة ولو بعد آلاف السنين".
وبينما استخفَّ الناسُ بما سمعوه، وتحوَّل الأمر برمته إلى مادةٍ خصبةٍ للمزاح، امتلأت السماء عن آخرها بسربٍ من طيورٍ بيضاء لم يعرف أحدهم تصنيفًا أو توصيفًا لنوعه من قبل، يمتد حتى ما وراء امتداد البصر، وخشعت العيون رهبةً وتحفزًا، حتى صاح أحدهم :"دول ولاد الرسول يا جهلة، لعنة جدكو كومانور هتحط عليكم يا غجر".
انصرف الناس هربًا، واختبأ آخرون أيامًا وراء جدران منازلهم، والبعض فضَّل قبور الأجداد التي اكتشفها الخواجات حتى تقيه هجمة اللعنات.
استمرَّ الأمر أيامًا، حتى أذَّن شيخ الجامع لصلاة الجمعة، ولم يجبْه أحد.
أعاد الأذان، لم يخرج أحد.
فأذَّن الشيخ في الناس: "يا بلد، الست أم كلثوم ماتت، وهنصلي صلاة الغايب على روحها".
فخرج الناس.
وبدأت اللعنات.

(3)
تَسْلِيمُ وَتَسَلُّمُ العَبَثِ

دائمًا كانت بلدتنا كومانور مرتبكةً عقائديًّا، ما إن تطمئن لعبادة ملك، حتى ينتهي ليتسيَّد إلهٌ غيره، وما إن يعتنق أهلهُا دينًا حتى يفاجأون بدينٍ يمحو ما سبقه، ويدَّعي بأنه الأحق والأمثل.
في الواقع بات الكومونـاريون يتعاملون مع الأطروحات العقائدية والمذهبية المُستنسخة والمُستجدة بلامبالاةٍ شديدةٍ التلقائية، فتحوَّل الأمر من اعتقاد إلى تقبُّل، ومن إيمانٍ إلى رضا يميل إلى خنوعٍ ثم إلى اعتياد.
تعاقب على أرضنا عشرات الآلهة، ومئات الأنظمة الحاكمة، وتعددت اللغات وتباينت الثوابتُ، وبقي دائمًا وأبدًا تفرُّدنا بإرثنا واعتدادنا بأصولنا واختلافنا، وإيماننا بذلك الخيط الغامض الواصل بين

تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا، ربما كان للأمر علاقة من قريبٍ أو بعيدٍ باشتغال الكومونياريين الأوائل بالسحر.
اعتنق الكثيرون من الكومونياريين المسيحية، وتحديدًا المذهب المسيحي اليعقوبي، وهو ما تعارض جملةً وتفصيلًا مع المذهب الخلقدوني للحكام الروم البيزنطيين والذي ينصُّ على اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص المسيح.
وبينما عمد الروم إلى التنكيل بكل الطوائف التي اختلفت معهم مذهبيًّا، إلا أن النموذج الكوموناري كان عصيًّا على الاستيعاب، فكومانور كانت مُحاطةً بأسوارٍ عاليةٍ، وخنادقَ عميقةٍ، ومؤهلةً من قديم العقود لأن تكون مملكةً في ذاتها.
حتى إن أهلها ورغم اعتناق الأكثرية منهم الدين المسيحي وتحديدًا المذهب اليعقوبي، إلا أن الكثيرين منهم لا يزالون يُقدسون الإله الجد الأعظم كومانور ويُبدعون في استحضار جبروته بالسحر والنحت، ويُبجلون وزيره العجوز الساحر، ويتحدثون بفخرٍ وخشوعٍ عن رسول الإله الطائر العالق في السماء إلى حين.
قليلٌ من الكومونياريين لا يزالون يعتقدون باليهودية، وآخرون يعبدون آلهةً إغريقية قديمة، وبعضهم يدينون بدينٍ وهمي لا يُوجد إلا في خيالهم، ومع كل هذا وذاك لم ينقطع دابر السحر من السلسال الكوموناري بعد.
كل هذا جعل من كومانور نموذجًا أكثر تعقيدًا وتشابكًا وتوحدًا في ذات الوقت، فشل الأغراب في فهم واستيعاب الحالة الكومونارية النادرة، ففضلت الأنظمة الحاكمة على اختلاف أصولها ومنبتها وأزمانها تجنب الصدام مع الكومانوريين واعتبارهم دولةً داخل الدولة، فقط يكتفون بقيام أحفاد الرب بإعلان ولائهم اللفظي والظاهري للعرش الحاكم في العاصمة.
اشتهر قِبط كومانور بالتجارة ما بين المدن المصرية وبلاد اليمن والحجاز،يحتكرون طريق التُهامي الموازي لساحل البحر الأحمر، وكان أشهرهم على الإطلاق التاجر "سركيس"، ذلك الذي جمع ثرواتٍ لا عدَّ لها ولا آخر، يُتاجر في كل شيء وفي كل مكان، وتزدهر الأرض أينما حلَّ، حتى أنه كان صديقًا لكل الحُكام، ورفيقًا لكل الوجهاء، وحامي كومانور الأول.
كان جيشًا في ذاته بقوة المال وجبروت الاحتكار لِجُلِّ ما يحتاجه أصحاب الحاجات وأصحاب السُلطة.
يقولون إن سركيس ورث قوة السحر العظمى من سلسال الكومانور الإله، ويُقال بأنه عثر على كنزٍ من كنوز العجوز الوزير الساحر، ويُقال بأنه ليس كومونياريًّا من الأساس وبأنه ينحدر من سلالة الحدارية.
قالوا عنه الكثير، وسمعنا عنه الكثير والكثير، الصغار قبل الكبار يتحدثون عن حكمته ورجاحة عقله، تلك التي اكتسبها بطبيعة الحال من التجارة وكثرة الترحال، أضف إلى ذلك بأن الأغنياء لهم مكانة في قلوب الجميع، خاصة العوام، فالمال سيظل يحتكر الألباب في كل وقت مع اختلاف العصور، حتى أنه عندما عاد من واحدةٍ من رحلاته التجارية المعتادة ليفجر في وجوهنا مفاجأته العُظمى، تعامل معه الكومونياريون باحترام، ولم يفكر أحدهم مع هول ما قال أن يتعرض له بسوء، أو حتى يتلفظ باتهامه بالكذب أو الادعاء، يومها اكتفى الناس بالصمت، والنظر في وجوه بعضهم البعض، ثم الانصراف بعيدًا من دون تعقيب.

سركيس يتحدث إلى الناس عن دينٍ جديدٍ سمع به في ترحاله بين قبائل العرب، وكيف تملّكه الفضول لمعرفة المزيد عن الأمر، فذهب لملاقاة الرسول المزعوم، وكيف مُنع من إتمام اللقاء، حيث طلب منه قوم الرسول الذين يحاربون رسالته احترام الحصار والمقاطعة التي فرضوها عليه وعلى من اتبعه منذ سنوات.

سركيس يحكي عن لقائه بواحدٍ من أثرى وأكبر تجار قبائل العرب، والذي يُعد في الوقت ذاته واحدًا من أقرب أصدقاء الرسول العربي، ذلك الذي قرأ عليه كلماتٍ من كتاب السماء المقدس، وكيف أن رسولهم سافر إلى بلاد مسقط رأس المسيح وصعد لملاقاة أهل السماء في ليلةٍ واحدةٍ أو بجزءٍ منها، وكيف أن بداية الاتصال بين صاحبه والسماء تجسَّدت في غارٍ يقبع في باطن واحدٍ من جبال العرب.

عكف سركيس أعوامًا في الإشراف على بناء واحدٍ من أكبر صروح كومانور، يتوسط ردهة مدخله الكبير تمثالٌ يُناطح الجبال طولًا، يحمل على رأسه تاجًا في أوسطه طائرٌ له رأس إنسي وسيم، ومنقوش على جبهة التمثال الأعظم: كلمات "الرسول العربي الطائر".

توجَّه الكبار إلى قصر سركيس طالبين تفسيرًا مقنعًا ومُجديًا لما رأوه وقرأوه بصرحه الجديد.

سركيس يصيح في الناس ببلاغته الساحرة وحنكته المعهودة:

"الرسول الطائر حط على الأرض من جديدٍ، اختار بقعةً بعيدةً للهبوط، ليبدأ رحلته مترجلًا نحو منبته الكوموناري، فيمنحنا مزيدًا من الوقت والحكمة للتهيؤ لاستقباله كما يليق بقدسيته ورسالته، والتطهر مما علق بسرائرنا وضمائرنا من آثام، إنه البعث المُقدس والمنتظر، إنه الخلاص يا قوم".

وهنا صمت الناس ويكأن على رؤوسهم السحر، وما استفاقوا إلا على صياح أحدهم:

"هنيئًا يا أحفاد الرب، كوموناور الإله بعث إليكم برسوله الطائر من جديد، رحمةً وبركةً وإنقاذًا، عادت أمجاد البلاد، الحمد لكوموناور.... الحمد لكومانور .....".

وردَّد الناس فور استعادة وعيهم باللحظة: "الحمد لكومانور العظيم، الشكر للجد الإله".

وهنا وصلت الفُرقة حدًّا لم تصله في بلدتنا منذ بدأ الوعي للتأريخ، انتفض حُماة الصليب منتقدين هُتاف العوام لكومانور بكونه إلهًا من جديدٍ، وتعملقت الفتنة إلى أن وصلت في أحيانٍ إلى حد إراقة الدماء بين الفريقين.

وصلت الأنباء إلى العاصمة، فاحتار الحاكم في مُعالجة الأمر، ليس بالأمر الهيّن إصدار أمر بتسيير قوات إلى كومانور لتأديبٍ أهلها، فالبلدة قد تتناسى تناحرها وتتحد في لحظةٍ ضد قوات الحُكم، وهنا لن تكون العواقب مأمونةً في ظل اتحاد الكوموناريين.

اتخذ الحاكم قرارًا بالقبض سرًّا على سركيس حتى تخمد الفتنة، ويعود الناس إلى صوابهم، ونسيان ماضيهم المسحور.

اختفى سركيس من بين الكوموناريين، وانتشرت الأنباء باعتقاله لِكُفرِه وتشكيكه في دين المسيح، وأن مصيره سيئول إلى كل من يُردد أو يتفوه بحديث الزندقة المُحَرم.

وصمت الناس، ربما كان صمت الانتظار، أو صمت اليقين، وفي بعض الأحوال فهو صمت الترقب.

تعدو السنوات، ولم يعد سركيس، ولم تصل أنباء من بلاد العرب عن الرسول الطائر.

إلى أن جاءنا يومٌ ترددت فيه الأخبارُ بأن العرب يسحقون الروم في كل مكان، وأنهم باتوا على مسافة ساعاتٍ من كومانور.

ابتهج الناس، وأعادوا الزينات والأنوار إلى صرح سركيس العظيم، وانتشرت آيات الحمد لكومانور، واصطف الناس على عتبات الأبواب والأسوار في انتظار المُخلص المترجِّل من بلاد العرب بعد عودته من السماء.
دخل العرب بلا أية مقاومة، وانتشرت خيولهم في كل أرجاء كومانور، لم يظهر من بينهم رسول، ولم يلتفتوا أو يُجيبوا الكومونارِيين عن أسئلتهم.
توجَّه الوجهاء وكبار كومانور إلى كبير العرب القادم، يقصُّون عليه نبأ سركيس الكومونـاري.
استمع القائد العربي لروايتهم صامتًا، ثم أصدر قراره باستمرار حبس سركيس بتهمة الكفر والادعاء.... إلى الأبد.
تعجب الناس، حتى وجدوا ضالة فكرهم في تفسيرٍ أشاعه أحد أتباع "سركيس" بأن الرسول الطائر غضب من حالنا، ورفض البقاء على الأرض فعرج إلى السماء مؤجلًا الخلاص.
فاعتنق أكثر الكومونـاريين الدين الجديد قربانًا لرسولهم المُنتظر،..... علَّه يعود.

(4)

امْرَأَةٌ أَحْيَاهَا الدَّمُ

العمدة فهيم أعظم عُمداء كوم النور على مدى تاريخها أو التأريخ لها، تناقلت العائلات حكايته جيلًا من بعد جيلٍ، يمتلك من القوة، والثروة، والسلطة، وداء البُخل ما جعله يمتلك نصف أرض كوم النور، يحتكر العمودية التي جعلها تتوارث كالنظُم الملكية، تربطه برجال القصر الملكي عَلاقات قوية جعلته يحصل على لقب البكوية في سن صغيرة جدًّا، ولم يكن أحدٌ من الكومونارِيين يجرؤ على جداله أو عصيان أمره، أو حتى المرور من بعيد على مرمى بصر قصره راكبًا على حماره.

لم ير أهل البلد له ولدًا ولا زوجةً، قيل بأنه تزوَّج من مصراوية من أصل تركي وأنجب منها ولدين يعيشان في بلاد الإنجليز يدرسون كالخواجات وبينهم.

تضخمت سلطته وثروته وذاع صيته في كل نواحي بحري، يزرع في أرضه كل شيء، ويتاجر في كل شيء، ويسيطر على كل شيء – دون أن يبرح قصره.

لم يلتفت أحد يومًا إلى كونه مسيحيًّا، ولم يفتقده أحد يومًا في جماعة صلاة الجمعة، لكن الأمر بدأ يُثار على غير العادة عندما تبرَّع بقطعة أرضٍ كبيرةٍ بجوار قصره لضمها لأرض الكنيسة وإعادة بنائها على نفقته الخاصة.
تعجب الناس من كرمه غير المعتاد وتخليه عن بخله، ولأول مرة في كوم النور تنتحر علامات التعجب خارج أُطر الأفواه المرعوبة، قالها الحاج نظير الزيادي "كبير عائلة الزيادية" في وسط الجامع بأعلى صوته:
"ده إحنا عمرنا ما شوفنا العمدة طلَّع سحتوت من جيبه لجامع أو حد غلبان، طول عمره ماسك على ماله ودهبه وأرضه زي ما يكون هيخلد فيها، إيه اللي جد في الدنيا؟".
وأعلن الحاج نظير من فوره تبرعه بقطعة أرض يمتلكها على حدود الجامع الكبير من الناحية القبلية لتوسعة الجامع، لم يتفاعل الناس مع إعلان الشيخ المُسن وانفضوا من حوله بسرعة البرق خوفًا من أن يصل الكلام إلى العمدة فهيم بك فيُفهم أنهم متورطون في الأمر.
ما فعله الرجل كان بمثابة كارثةٍ مجتمعيةٍ في كوم النور لم يستطع أحد التنبؤ في دخائله بعاقبتها.
في اليوم التالي رأى الفلاحون الحاج نظير يمتطي حماره في طريقهِ إلى أرضه مرورًا بقصر العمدة دون أن يترجل احترامًا وإعلانًا للخضوع.
الغفر وحراس القصر بدوا مُبتسمين بغير اكتراثٍ لما فعله الحاج نظير.
لم يعد الرجل المُسن إلى بيته في نهاية اليوم، وجد الناس في اليوم التالي أشلاء من جسده على أطراف ترعة العجايزة، وظهر من بين الناس من يُروج بأن الحاج نظير فقد عقله في أيامه الأخيرة وربما أساء الرجل الحفاظ على روحه، صمت الناس إعلانًا منهم بالموافقة على استنتاج سبب الموت.
أقام العمدة سرادقًا كبيرًا في حوش القصر لأخذ عزاء الحاج نظير حضره كل أهل كوم النور، ولم يجرؤ أحدهم بمجرد الهمس باحتمالية تورط العمدة في مقتل الرجل.
اقتحمت الحاجة سكينة زوجة الحاج نظير سرادق العزاء وصاحت في الناس:
"قوم يا مَره منك له، مفيش عزا"
وواجهت العمدة بجرأة لم يعهدها أو يعتادها الناس، ونظرت في عينيه بتحدٍّ أذهل الكلَّ:
"متشكرين يا عمده، عزاك ميلزمناش، الحاج نظير مماتش".
لا يليق بالعمدة ولا غيره على أية حال الاحتكاك بالنساء أو إظهار الندية في التعامل معهم، التفَّ الغفر حول الحاجة سكينة وحاولوا إبعادها عن عمدتهم، فانتفض الناس من جلستهم، وأشار البيك لفوره على غفره بالابتعاد عنها ووجَّه حديثه إلى شيخ غفره:
"شوف تمن بيتهم وأرضهم كام، وييجي الصبح عليهم وهما بره كوم النور".
وانصرف العمدة، واختفى الرجال من السرادق، وبدأ شيخ الغفر في تنفيذ أمر البيه، وتعجب الناس لتقبل المرأة القوية الأمر بهذه البساطة، وقبولها ثمن البيت والأرض، بل وخروجها فعليًّا مع بناتها مُهجَّرات من كوم النور خانعةً تمامًا لأمر العمدة.
ككل الأحداث الجِسام في بلدتنا تهدأ تمامًا مع مرور الهمِّ، ويدفنها الناس بلا رحمةٍ في بئر عميقةٍ تستعمر العقول والقلوب، وهذا تمامًا ما كانت تنتظره الحاجة سكينة.
استخدمت المال في مكانه الصحيح، لجأت ببناتها إلى كوم الطبالي تلك التي يقطع الحمار المسافة بينها وبين كوم النور في نهارين وليلة، تحالفت بكل ما تملك وما حصلت عليه من العمدة مع فتوة

وكبير كوم الطبالي.
الريس زُغلة لم يستطع رد سيدة تلجأ إليه وبرفقتها حفنة من البنات.
وبدأ الترتيب لخطة الحاجة سكينة.
كان طلبها الأول والأهم ألا يقتل سواها العمدة فهيم، وأن يقتصر دور الريس زُغلة ورجاله على الحماية واصطياد العمدة، والتواصل مع ما تبقى من أهلها وأهل الحاج نظير في كوم النور، وكذا تهيئة المتعاطفين معهم للتدخل وقتما تقتضي الحاجة.
اختارت الحاجة سكينة يوم السوق حيث اعتاد فهيم بك التجول على ظهر حصانه ليتابع الأحوال ويُحدد الأسعار وربما يختار من كانت بلا أهل لتقاسمه ليلته على سريره.
انتشر رجال الريس زُغلة بين الناس في السوق، وبدا عدد النساء الغريبات عن كوم النور أكثر بكثيرٍ عن المعتاد، وظهر العمدة من بعيدٍ ممتطيًا جواده، فبدأت التحركات.
عشرات الملثمات من نساء كوم الطبالي يلتففن حول العمدة وحصانه، يجذبنه من فوق عرشه، الرجال يُخرجون أسلحتهم وعصيهم من تحت الجلابيب، يصنعون سياجًا حول المشهد مانعين تدخل من يفكر في الاقتراب.
وتولت النسوة تنفيذ البند التالي من الخطة، جرَّدن العمدة من كامل ملابسه الفوقية والتحتية، كبَّلن حركة يديه وقدميه بالحبال، وهنا ظهرت الحاجة سكينة كملكة تنزل على رعيتها بكامل الثقة والشموخ، تتبعها بناتها كالوصيفات الفاتنات.
ومن الجانب المقابل ظهر شيخ الغفر ورجاله يهرولون لنجدة سيدهم، وهنا تولى كل من في السوق من أهل كوم النور - وأغلبهم ممن تم التنسيق معهم مُسبقًا للتهيؤ حين الحاجة – السيطرة على الغفر وتكبيلهم.
لم تنس كوم النور لعقودٍ كثيرةٍ وحتى الآن مشهد الحاجة سكينة وهي تُجري أعقد وأبشع عملية ثأرية سمعوا بها في تاريخهم:"إخصاء العمدة، تشريح جسده حيًّا، فصل الرأس عن الجسد، وفي النهاية إحراق كل شيء".
انتهى العمدة فهيم، ولم يظهر له أبناء ولا زوجة ولا ورثة، وآلت كل أملاكه لبلاط القصر الملكي، وحينما جاءت الحكومة لتحقق في الأمر، أخبرهم شيخ الغفر- الذي عُين عمدة إلى حين- بأن أغرابًا لا يعرفهم قاموا باغتيال فهيم بك وحرق جثته على أطراف كوم النور، وأيده كل الغفر والأهالي.
عادت الحاجة سكينة ببناتها إلى الدار والأرض، واكتفى الريس زُغلة بالمال ودعوات الولايا، واتخذ الضعفاء من سكينة عمدة من دون تعيين أو تكليف من الحكومة.

(5)

العَتَبَاتُ

يقول الشيخ أمان، حارس عتبة الجامع الكبير في قريتنا كوم النور إن الكنز الذي تركه لنا جدنا الأكبر كومانور قابع تحت العتبة السحرية للجامع، ويقول كذلك بأن الجامع تم بناؤه في نفس مكان معبد الرب كومانور الساحر، وأن العتبة المنقوش على سطحها تعويذة سحرية بلغةٍ لا يفقهها العوام هي ذات العتبة لمعبده القديم، لم يستطعْ أحدٌ اقتلاعها أو هدمها أو ردمها أو حتى البناء عليها عبر مئات السنين.

الشيخ قال من بين ما قال بأن مقبرة الإله كومانور موجودةٌ أسفل تعويذة العتبات.

حاول الناس كثيرًا فك طلاسم التعويذه لتنفتح على بئرٍ عميقةٍ من ذهب اختزنه جدنا الأكبر.

صغيرًا كنتُ دائم الصلاة في المسجد، ودائمًا أتعمد أداءها بجوار العتبة، موقن بأن الله اختارني لفك التعويذة والحصول على الكنز، ربما كان للأمر علاقة بما تناقله الناس عبر الأجيال عن الحاج طناني كبير عائلة الطنانية والذي خرج يومًا متكئًا على عصاه العجوز من باب المسجد الخلفي بعد أدائه صلاة الفجر وانتظاره كعادته كل ليلة بعد انصراف الناس ليغلق الأبواب ويطفئ القناديل.

يقول الناس بأن عصاه وطئت نقشًا من نقوش التعويذة التي تزين العتبات، فانفتحت العتبة لدقائق ليظهر من تحتها نهرٌ متدفقٌ من سبائك الذهب، فاتخذ الحاج طناني من أطراف جلبابه وعاءً ليغترف من كنز قريتنا قدر ما استطاع، وقدر ما سمحتْ به البئر قبل أن تنغلق ثانية وتبتلع عصاه.
الكل يُبجل عائلة الطنانية، والكل يعمل لأبنائها ألف حساب، هم أغنى أغنياء القرية، وكذلك يعتقد الناس بأنهم سلسالٌ مباركٌ وإلا لما اختارتْ البئر الذهبية كبيرهم لتكشف له عن ملامحها.
امتلأتُ صغيرًا بعشق العتبات، وتلبستُ بداء البحث عن وسيلةٍ لفك التعويذة، تركت نفسي رهينةً لأحلامي، تلك التي تعهدَت الست صالحة خادمة منزلنا بتأويلها بما يخدم هوسي بالكنز الملتحف بالعتبات.
تعمدتُ الحفاظ على صلاة الفجر في الجامع، وتعمَّدت إبقائي لأكون مُغادِرَه الأخير كل ليلة، واتخذت من أعواد الحطب المُكدسة على سطح بيتنا بالتتابع عكازًا صبيانيًّا أتظاهر بالاتكاء عليه حتى يُلامِس العتبات، ربما تنفتح لأيّها.
استغرق الأمرُ مني شهورًا لنقل النقوش المحفورة على العتبات رسمًا على كراستي، رغبةً مني في تأملها طول الوقت، ومحاولة مصادقتها طول الوقت، واستغرق الأمرُ مني سنواتٍ لأتيقن من فشلي في أن أسترضي حُراس العتبات، أو أن تفلح وساطتي لإتمام الصداقة بين أحد الأعواد وتجاويف التعويذة المنقوشة.
حتى جاءنا يومٌ يختلف عن سابقيه، يقرر فيه الحاج نزيه الطناني عين أعيان كوم النور وكبير الطنانية، وحفيد الحاج الطناني الكبير، ومعه كل أعيان القرية استقدام مجموعةٍ من أمهر السحرة المغاربة ليفكوا طلاسم النقوش المسحورة على سطح العتبات.
أرسل السحرة مع المرسال شروطهم، أولها إخلاء الجامع ثلاثين يومًا دون أن يدخل عليهم إنسيٌّ، ثانيها أن يكون لهم ربع ما سيخرج من تحت العتبات، ثالث الشروط وآخرها ألا يسألهم أحدٌ عن شيء مهما كان ومهما حدث.
مجلس الأعيان يقرر قبول الشروط والبدء في إجراءات استقدام السحرة الأربعة.
يتناثر الخبر في كل مكان، تعم الفرحة أرجاء البيوت والغيطان، ويتفرغ الناس لجلسات المصاطب، يتخيلون أكوام الذهب التي سيُنقب عنها السحرة، وكيف سيقرر مجلس الأعيان توزيعها على أهل كوم النور.
مجلس الأعيان يُكلف حسني أفندي الباشكاتب بحصر كل الأُسر في القرية حصرًا دقيقًا، وتحديد العائلات ذات الأصول الكومونارية الصافية، تلك التي سيكون من حقها أن ترث جدها الأكبر كومانور.
السحرة يصلون، ينزلون ضيوفًا على الشيخ نزيه، يتجمَّع أهل القرية عن بَكرة أبيهم لأداء صلاة الجمعة الأخيرة في الجامع قبل إغلاقه شهرًا كاملًا.
شيخ الجامع يصعد على عتبات المنبر دامع العينين، يخطب في الناس زاعقًا:
"إغلاق الجامع حرام، دخول السحرة بيت الله حرام واستخدام السحر على إطلاقه حرام حرام".
تلفت الناس لبعضهم ثم إلى العتبات، وانسحبوا من المشهد، خرجوا من الجامع دون صلاة.
الحاج نزيه يبعث مرساله لشيخ الجامع طالبًا منه مغادرة كوم النور حتى إشعار آخر.
السحرة يعتكفون، لا يعلم إلا الله ماذا يحدث بداخل المسجد.

لم يجرؤ أحد على الاقتراب من المسجد، جلسات المصاطب بعد الغروب أصَّلت لأسطورةٍ جديدةٍ دخلت في قاموس كتاب الأساطير المُختزن في أوهامنا.
"تقول الأسطورة المُبتكرة بأن من يقترب من الجامع ليلًا سوف ينشله السحرة قربانًا لحراس العتبات".
واقتربْتُ... عمدًا.
قررتُ دخول الجامع من النافذة المفتوحة في دورات المياه، والتلصص على أعمال المغاربة، لا أخفيكم سرًّا، تملَّكني شعورٌ بأنهم يُنقبون عن حُلمي، ينهشون إرثي الذي أنتظره كل ليلة.
"كيف أسمح لهم أن ينفردوا بمقبرة الجد ويغترفوا دون وجه حق من كنزه المغشي عليه؟".
سوف أقف حائلًا أمام أطماعهم السوداء.

.....

مرت ثلاثون ليلة بالتمام، يتجمع الناس وعلى رأسهم أعيان بلدتنا أمام باب الجامع في انتظار الخروج الكبير، مُحملين برائحة أنهار الذهب المُصفَّى.
لم أكن من بينهم.
الشيخ نزيه يطرق باب الجامع الأمامي استئذانًا في دخوله والأعيان..... لم يُجبه أحدٌ.
دخل الأعيان، والناس تترقب النتائج..... لم يخرج الأعيان.
اقتحم الناس الجامع أفواجًا لاستبيان ما يحدث وما حدث، أو ربما خوفًا من أن ينفرد الأعيان بالثروة.
لم يجد أحدٌ أثرًا للسحرة، ولم يجد أحدٌ أثرًا للنقوش على العتبات.
الصدمة لجمت أفواه وعقول الناس، والتف الجميع حول الحاج نزيه المسئول الأول عن استقدام السحرة يسألون عن شرحٍ أو تفسيرٍ.
بدا جليًّا أن الأعيان وفي مقدمتهم الحاج نزيه في مأزقٍ شديد الخطورة.
حسني أفندي الباشكاتب يدخل الجامع قادمًا من بلاد البنْدر يصيح حاملًا البشرى للناس:
"الظباط في الجيش عملوا هوجه وعزلوا الملك وطردوه بره مصر، وبيقولوا إنهم هياخدوا فلوس الأغنيا يدوها للفقرا".
ساد الصمت بين الناس، وهتف الحاج نزيه فيهم: "الظباط بعتوا السحره ياخدوا ورثكم يدوه للفقرا".
هتف الناس ضد الثورة.
ما زال الناس في كوم النور حتى الآن يكرهون عبد الناصر زعيم ظباط الهوجة.

.....

ما زلت أحتفظ بقطعة الذهب التي قذفها السحرة في وجهي عندما دخلت عليهم الجامع بينما كانوا يهبطون سلالم البئر بعد أن انفتحت لهم العتبات قبل أن تنغلق ثانية للأبد.

.....

ما زلتُ أحتفظ بنقوش العتبات المختفية في كراستي، وما زلتُ دائم الصلاة في المسجد متعمدًا أداءها بجوار العتبات، موقن بأن الله اختارني لفك التعويذة والحصول على الكنز.
لم أكره عبد الناصر كالآخرين.

(6)

اللَّعْنَة

كوم النور تسبح على كنزٍ كبيرٍ من آثار أجدادها، المشكلة تكمن في أن الأبناء لم يتوارثوا حرفة السحر من أسلافهم، فلم يستطعْ أحدٌ من أهلها العثور على كثيرٍ مما تركوه لنا.
جاءنا أناسٌ يرتدون زي الأثرياء يمتطون عرباتٍ فارهةً يسير وراءهم آخرون يحملون أسلحةً لم نعهدها لحمايتهم.
نزلوا أول ما نزلوا على دوار العمدة، ورغم عِلم الجميع بأن العمودية لم تعد بكاملِ هيئتها أوٍ هيبتها التي كانت عليها منذ عشرات السنين، إلا أنه وعلى كل حالٍ يبقى العمدة واجهةً ولو رمزيةً لأهل البلد.

العرضُ الذي تقدَّم به الكبار مجهولو المصدر والهوية يتلخص في استعدادهم التنقيب عن آثار كوم النور من تحت منازل أهلها مقابل ثلث ما يتم استخراجه لصالح أهل الدار القائمة فوق أرض الكنز، على أن يتحمل الغرباء كافة تكاليف التنقيب ونفقاته التقنية.
بطبيعة الحال فإن العمدة لم يكن يملك أن يُعطي الغرباء كلمةً أو قرارًا في حينه، طلب منهم أن يُمهلوه أسبوعًا لحين التشاور مع الأعيان.
اجتماع مجلس الأعيان العرفي -والذي يضم وجهاء وكبار ومتعلمي كوم النور- استمر لأكثر من خمس ساعات من التشاور والبحث، قرروا فيها الموافقة على عرض الغرباء على أن يرتفع نصيب كوم النور إلى الثلثين من إجمالي ما يتم استخراجه من كل أرض البلد بصرف النظر عن البيوت التي تم الاستخراج من أسفلها، على أن يتم توزيع النسبة على كل أهل القرية في صورة مبالغ مالية أو مشاريع عامة أو خدمات تعليمية أو صحية أو بنية تحتية.
وقبل كل ذلك فإن المجلس يُفوض العمدة لتبليغ الغرباء بقرارهم والتفاوض معهم بشأنه.
قَبِل الغرباء بشروط المجلس على أن يتم محاسبة مجلس الأعيان بشكل نصف سنوي، وبدأ العمل في التنقيب تحت حراساتٍ أمنيةٍ شديدة الصرامة والسرية، حتى أن الغرباء يطلبون في أغلب الأحيان إجلاء سكان حارة بأكملها بعد توفير أماكن مناسبة أكثر رفاهية من بيوتهم الأصلية لإيوائهم.
شهورٌ من العمل المتواصل، والحلم يتكاثر في خيالات العقول الظمآنة، عربات تدخل وأخرى تخرج، سحرة من جنسيات مختلفةٍ يعملون على فك تعاويذ المقابر والكنوز، والمجلس ينتظر مرور الستة شهور الأولى لبدء الحساب مع الغرباء وبدء فيضان المال والذهب.
وكعادتي لا أهدأ ولا أكف عن التفكير والتنقيب، مقتنعًا تمامًا بأن لي حق الميراث في كنوز أجدادي التي بدأ التنقيب عنها، بعثتُ للمجلس برسالة من دون توقيع أتساءل فيها عن كيفية معرفة أو تحديد الكم الحقيقي للكنوز التي يستخرجها الغرباء والتي على أساسها ستتم القِسمة، وطالبت بوجود مندوب من الكومونارِيين يلاصق الغرباء لحصر الكنوز المستخرجة، وربما يتعلم كيف يقومون بالتنقيب لينقل لنا الخبرة فنستغني عن الغرباء ويؤول الإرث بأكمله لمستحقيه.
وافق المجلس، وتم الاجتماع بالغرباء وتبليغهم شروط المجلس الجديدة، ابتسم "البهوات" ولم يعترضوا.
في اليوم التالي انقطع الغرباء، أيام مرَّت وشهور انقضت، ولم يعد أحدهم، والعمدة ليس له حيلة في الأمر، سأله الأعيان عن عنوانهم، أو ضمانات عليهم أو حتى صور لهوياتهم.
لم يكن العمدة يمتلك إجابة ولا معرفة عن أي شيء.
الصدمة والإحباط والفشل والشعور بالعار سكنت كل بيت في كوم النور.
مجلس الأعيان يقرر الاعتماد على أهل البلد ومحاولة التنقيب بأنفسهم عن كنوز الأجداد.
اشترك الجميع في الحفر والبحث وجمع الكتب التي تتحدث عن التعاويذ السحرية.
العمدة استقدم بعض العرافين من بلاد الصعيد.
أيام قليلة، وحضرت الحكومة.
انتشرت القوات السوداء في كل الحارات وأمام كل البيوت، وتم القبض على مجلس الأعيان والعرافين، وتم القبض على العمدة وعزله من منصبه.

وعندما تجمَّع كل أهل كوم النور أمام نقطة الشرطة للمطالبة بإخلاء سبيل الكبار، همس ضابط النقطة حديث التخرج في آذان الناس:
"روحوا يا إخوانا، دي أوامر الكبار أوي اللي أكبر بكتير من الكبار بتوعكوا"
وعندما سأله الناس عن سبب اعتراض الحكومة على التنقيب الآن، وعدم اعتراضها على تنقيب الغرباء، أجاب همسًا:
"ما هو الغُرب دول رجالة الكبار، وهم استكفوا على كده، ورافضين حد يكمل غير لما يرجعوا بعد ما يصرَّفوا اللي جمعوه ".
تم الإفراج بعد أيام عن العمدة والأعيان لتخفيف الغضب ومنع الاحتقان، وعندما التف الناس حول كبارهم الذين بدت الإهانة على عمائمهم، لم يجدوا سوى طلب الأعيان منهم والذي يرقى لأن يكون أمرًا بالعودة إلى بيوتهم ونسيان كل شيء.
صوتُ الأستاذ أحمد المحامي "ابن عم حسني أفندي الباشكاتب" يصيح من وراء الجموع بالخبر الجديد:
"قتلوا السادات عالمنصه".... " الريس اتقتل يا بلد".
لم يتعاطف أحدٌ، لم يحزن أحدٌ، لمحت بعض الابتسامات المكبوتة تختبئ وراء انصراف الناس ضاربين أكفهم على أكفهم شاخصةً أبصارُهم صوب السماء.

كل الكومونارديين ينتظرون اليوم الذي يثأرون فيه لإرثهم المسلوب من الكبار الأكبر من كبارهم.

(7)
أَوْلِيَاءُ اللهِ الكَاذِبُون

عرفناه خادمًا للجامع الأكبر في بلدتنا، يرتدي دائمًا نفس الجلباب القديم المُرقع، يرفع الأذان، ويجمع التبرعات في الصندوق، يزرع بذور القرآن في عقول أولاد الناس الغلابة، وأحيانًا يؤم الناس في صلاتهم حال تغيب شيخ الجامع أو تأخره.
كان عذب الصوت، محبوبًا من الجميع، كان كذلك بلا عائلةٍ ولا بيتٍ ولا ولد.
يحترمه الناس ويسخرون منه في آنٍ واحدٍ، في حضرته تتجسد في عيونهم خلطة غريبة تمزج ما بين الرهبة واللامبالاة، ينادونه بالشيخ مِحرز، الأطفال يسخرون منه ومن ملابسه القديمة البالية، والكبار يُرددون شائعات يطلقها البعض بين الحين والحين عن الشيخ الخادم.
يقولون إن الشيخ مِحرز من الأولياء، يخدم بيت الله، يزهد في كل ملذات الدنيا، يتحدث إلى الأموات ويبعثون له بالرسائل.
يقولون بأن الكبار والأعيان يذهبون إلى كوخه سرًّا في جنح الليل يطلبون وساطته عند الوليِّ المتوفى ذائع الصيت سيدنا أبو المعاطي.
لكن لا يزال السواد الأعظم من العوام يُكذبون ويسخرون من كل ما يُشاع.
سيد فتلة كان واحدًا من أسوأ الحلاقين في البلد، دكانه قابع في مواجهة باب الجامع الكبير، يجلس دائمًا على باب الدكان دون زبائن ولا عمل، ينظر للمارة، ويثرثر في سيرة فلان وسيرة فلانة.
الطريف أن الزبائن كانت تأتيه من حيث لا يدري ولا يدري أحد، فقط، أثناء خطبة الجمعة، قيل بأنهم من دأبوا على الهروب من الخطبة ودخول الجامع فقط عند إقامة الصلاة.
الشيخ مِحرز يجلس دائمًا على مصطبة دكانة سيد فتلة، يتمتم بكلمات غير مفهومة ويذكر الله طول الوقت، ويتلقى تبرعات النساء الراغبات في الوصال مع سيدنا أبو المعاطي.
حتى أتاه يومه الفارق، فكرة شيطانية راودته منذ زمنٍ، لم يكن يستطيع قبلًا مجرد التفكير فيها، نادى سيد فتلة وطلب إليه أن يغلق باب الدكانة عليهم لمناقشة أمرٍ جلل.
واتفق مِحرز مع فتلة على كل شيء، وتعاهدا على حفظ السر وتنفيذ العهد.
وسافر فتلة إلى بلاد البندر ليشد الرحال إلى طنطا في اليوم التالي، وعاد إلى دكانه بعد يومين وكأن شيئًا لم يكن.

.....

اعتاد الأعيان وطالبو القُرب والوصال على السفر إلى طنطا كل عام لحضور مولد السيد البدوي، هذه المرة طلب سيد فتلة أن يكون معهم لخدمتهم، وحراسة متاعهم.
لم يكن في كوم النور عربات تستطيع السفر عبر حدود البنادر، فاعتاد الأعيان تأجير أتوبيس كبير بسائقه من البندر يرافقهم برحلتهم حتى العودة.
وكان لركوب الأتوبيس بروتوكولٌ متعارفٌ عليه لا يجرؤ أحدهم على الحياد عنه، فالأعيان وذووهم ومتاعهم وأحبابهم وأصدقاؤهم في مقدمة الراكبين، يعقبهم الأتباع والخدم، ثم يُفتح الباب للمحظوظين من العوام والفلاحين بأسبقية الوصول لباب الحافلة.
اكتملت الحافلة عن آخرها، وبينما يبدأ السائق في التحرك، يظهر أمامه وأمام الحافلة شيخ تعدى الستين، يرتدي جلبابًا شديد البياض ويضع فوق رأسه عمامةً خضراء، ويشيح بعكاز أنيق في وجه الركب ليصطحبوه ويرافقهم.
تعجَّب الجميع من مظهر الشيخ مِحرز الذي لم يعتده أحد بتلك الأناقة، ولم يُر يومًا قريبًا من طريق البلدة الزراعي، خرج كبيرهم من الحافلة معتذرًا للشيخ حيث لم يعد في الأتوبيس مكان ولو لِقطة،

ويعده بأن يكون أول المسافرين معهم في السنة القادمة.
لم يُجبه مِحرز، تحرَّك مبتعدًا عن الحافلة وهو يُردد دون انقطاع:
"ده ناداني يا عالم يا جهلة، جايلك يا حبيبي، جايلك يا حبيب الحبيب، .....".
ضحك الناس والأعيان، تحرَّك الأتوبيس، سيد فتلة يُطل على الشيخ من النافذة بابتسامةٍ واثقةٍ، و..... خبيثة.

.....

من قواعد هذا النوع من الرحلات، التحرك جماعةً ولا يُسمح بالتحركات الفردية حتى لا يتوه أو يُفقد أحدهم.
ليلة المولد الكبيرة تتسع للآلاف المؤلفة من كل حدب وصوب، كلٌّ في حالة سُكر يتجرع كأسه ما بين حلقات الذكر ونفحات الطيبين وحضرة سيدنا صاحب المقام والنور، ومبتغى طالبي القرب والبركة.
رائحة الخير والنفحات تفوح في سماء الوافدين ويكأنها تتنزل عليهم من السماء رحمةً وشفاعةً، هكذا كانوا يظنون ويُرددون.
وفودُ القرى والنجوع والمدن وبلاد أخرى غير بلادنا تتحدث لهجاتٍ غير ما اعتدناه، تسير جماعاتٍ منسقةً..
تبحث عن البركة وحضرات الذكر والأولياء المتخفين، وأغلبهم يعتقدهم الناس مجاذيب.
سيد فتلة يستوقف وفد بلدتنا مذعورًا:
"الشيخ مِحرز موجود هناك أهو يا إخوانا، سيدي مِحرز لبى الندا من غير أتوبيس، الناس حواليه هناك أمم، .....".
وذُهل الجميع، سيد لم يكن يهذي أو يتخيل، الشيخ مِحرز يرتدي جلبابه الأبيض الجديد، وعمامته الخضراء ويطوح رأسه في الهواء يمينًا ويسارًا، والناس من حوله بالمئات يحذون حذوه ويتبركون بالوصول للدائرة الأولى من حوله.
حاول وفدُ بلدتنا الوصول إلى الشيخ مِحراز وسط الزحام وتدافُع المريدين، لكن دون جدوى.
سأل كبيرهم الناس عن الشيخ المبروك الذي يلتفون حوله فكان الجواب أكثر غرابةً من رؤية مِحرز نفسه:
"الشيخ محراز موجود هنا من 30 سنة مسابناش ولا يوم".
وبين سؤال وجواب، وبين دهشة وضحاها، وبين عجز العقول عن التفسير أو التبرير، اختفى من المشهد الشيخ محراز، وظهر من مريديه من يُكرر على مسامع الجموع: "شيخنا راح عند سيدنا".
سيد فتلة يقترح على كبير الأعيان مهاتفة العمدة على تليفون الدوار والسؤال عن الشيخ مِحرز.
وجاء الجواب المتوقع الصادم: "الشيخ محرز نايم في الجامع مبيخرجش من يوم ما سابوه عالطريق".

.....

عاد الوفد يحكي ويتحاكى أمام الجميع.
تبرع أحد الأعيان ببيتٍ كبيرٍ وقطعة أرض من حولها للوليّ الجديد ليستقبل فيها مُريديه.
ذاع صيت الشيخ مِحرز في بلدتنا وبلاد الدنيا من حولنا، وانهمر سيل المال والقرابين على العتبات.

سيد فتلة أصبح خادم سيدنا مِحرز.
وكانت قسمة الإيراد الشهري بالعدل كالآتي:
-النصف بالتمام لسيدنا مِحرز.
-الربع لسيد فتلة.
-الربع الأخير يتم إرساله مع مخصوص شهريًا للشيخ مِحراز خادم الطريقة المحمودية وشقيق الشيخ

مِحرز التوءم الساكن في ضواحي طنطا.

"طيارة، طيارة جت"...
"طيارة، طيارة فووووووق".
هكذا كنا نصيح بكل ما أوتينا من صوتٍ استقبالًا للطائرات التي يُهديها لنا الله لتمر فوق بلدتنا، بعض الكبار يؤكدون بأن الطائرات التي نراها بعيدةً صغيرةً هي في الواقع كبيرة الحجم وربما أكبر من دوار العمدة ذاته.
كنا نرى الطائرات بآذاننا قبل عيوننا، وبمجرد سماع الصوت المقدس الصاخب نهرول في كل اتجاه، نجلب نبالنا، تلك التي نصنعها من قطعةٍ حديديةٍ على شكل علامة النصر مربوطة من طرفيها بطرفيْ قطعة من المطاط.
نتبارى بمجرد رؤيتنا للطائرة في تعمير مدافعنا البدائية الصغيرة بقطعةٍ من طوب أو زلط، نوجهها ناحية السماء لنُسقط الطائرة، لم يكن من بيننا يومًا فائزٌ أو صيادٌ حقيقي للطائرات.
حسني أفندي الباشكاتب يؤكد ما بين كل طائرة وضحاها بأن له قريبًا من أبناء عمومته في بلاد البندر القبلية ركب الطائرة من قبل، وقريبه أكد له بأنه رأى بلدتنا كوم النور من فوق السحاب.
حتى جاءنا يوم نستيقظ فيه على صوت ارتطام لم نألفه من قبل، يليه صوتُ مؤذن الجامع يؤذن بعباراتٍ أخرى غير التي اعتدناها، إنه نداء النفير الأعظم، طائرةٌ سقطت على أطراف كوم النور الشرقية، تحديدًا في الجرن الفاصل بين مقام سيدي أبو المعاطي والساقية المسحورة المتصدرة لأرض الطنانية.
الكل يأتي مهرولًا من كل صوب، الكل يصيحُ بكلماتٍ غير مفهومةٍ، منذ أن سمعنا صوت الارتطام الأكبر في حياتنا واهتزت مع الصوت بنايات الطوب الأسود على أرض بلدتنا والجميع يجري في اتجاه الانفجار.
كالعادةٍ تناثرت الشائعات على ألسنة النساء والصبية، لكن أهم التأويلات رواجًا، والذي تناوله الكثيرون كان مفاده أن الإنجليز عادوا ثانيةً إلى مصر لينتقموا من عبد الناصر.
حسني أفندي الباشكاتب يتحدث، وكالعادة يلتف حوله الكثيرون المعتادون على الانبهار بعلمه وثقافته ورحلاته إلى البندر واطلاعه على صُحفها.
"يا إخوانا دي هتلاقيها طيارة من طيارات بريطانيا العظمى وفرنسا وإسرائيل، اللي جايين يعملوا عدوان ثلاثي على المحروسة، الحرب دايرة ياخوانا وإحنا مش داريانين".
عم الحاج صلاح شيخ البلد ينهر الناس بصوته الأجش:
" بس يا مركوب منك ليها، هوه يعني باراطانيا العظمى سابت كل الدنيا وفاكرانا؟".
التف كل الكوموناريين في دائرة كبيرة حول الطائرة المنكوبة، تلك التي بدت أكبر كثيرًا من كل ما طمحنا أو شططنا به من خيال.
العمدة يأمر الغفر بعمل كردون بشري حول الحطام ومنع الناس من الاقتراب حتى تأتي الحكومة وترى ما يتوجب عليها إقراره وما يتوجب علينا تنفيذه.
لم أكن وسط الجمع المُلتف حول الحديد الطائر "سابقًا"، قررت أن أسبق الجميع بالوصول إلى موقع الحطام عبر طريقٍ مختصرٍ من داخل جناين الجوافة المملوكة لعائلة العجايزة أحفاد الحكيم العجوز.
رغم خطورة الطريق ليلًا، وندرة وطئهِ بالأقدام، لكني قررت كعادتي أن أتودد للحلم علَّه ينتخبني.
رأيتُ شبحًا يأتي من بعيد، يجرّث بكلتا يديْه أجولةً ثقيلةً، ويحاول قدر ما يستطيع أن يُسرع خطاه.

اختبأت وراء شجرة جوافة وارفة الثمار، اقترب الشبح أكثر، وتعرفته.
كان عم بُعلص النجار الذي يجوب حارات بلدتنا والبلاد المجاورة لإصلاح باب أو شباك أو صناعة طبلية أو كرسي.
تتبعت النجار حتى بيته، تلصصت النظر من وراء نافذةٍ متقادمةٍ تكشف أكثر مما تستر، ورأيت ما لم أستطع نسيانه حتى الآن.
رأيته ينادي زوجته لتساعده في فض ما حوت الأجولة، ورأيتهم يُخرجون منها أصابع بشر تتزين بخواتم ملونة بكل الألوان، تصرخ الزوجة من المفاجأة والرعب، يُسكتها عم بُعلص وتعتاد الأمر وتبدأ مع زوجها جمع المجوهرات في جانب والأيادي والمعاصم في جانب آخر، ثم رأيت المفاجأة الأكبر، حقيبة تشبه حقيبة سيد فتلة الحلاق لكنها أكبر وأنظف، مملوءة بأوراقٍ نقديةٍ مختلفةٍ، منها ما رأيته قبلًا ومنها ما لم أعرف حينها توصيفه.
تحركت قدماي عندما اقترب فأر عابثًا بين أصابعي، فانتبه عم بُعلص لوجودي، خرج لتوه يجذبني إلى الداخل، قال الكثير، هدَّد بالكثير، أعطاني غير قليلٍ من المعادن المُلونة فوعدته بالكتمان.
عُدت إلى البيت، أخرجت الصندوق الذي أخفيتُ بداخله منذ سنواتٍ سبيكة الذهب التي قذفها السحرة المغاربة في وجهي حين اقتحمت عليهم خلوتهم بينما انفتحت لهم عتبات الكنز المسحور.
تخليت عن فضولي برؤية حطام الطائرة، وخرجت مع الشمس مبررًا عدم حضوري تأبين الحطام مع الجميع بأني اصطدت الطائرة ليلًا بمدفعي المطاطي الصغير.
وعندما ضحك أهل كوم النور مُستخفين بهزلي الطفولي، صحتُ فيهم مغتاظًا :
" اللي مش مصدقني يسأل عم بُعلص..... ومراته".

.....

وعندما سأل بعض الطيبين عم بُعلص قال وقد بدت عليه الراحة والطمأنينة:
"دي طيارة الصهاينة، وحلال فيها الموت والسرقة كمان".

.....

عم بعلص عاش فقيرًا ومات غنيًّا مقتنعًا بأنه مناضلٌ وطني سيدخل الجنة.

.....

الله يرحم الجميع.

(9)
البَحْرُ الميِّتُ

وتحركت الأرضُ فأغمضت أعينها، وانغلق المضيق الواصل وانحبس البحر، وانفصل عن محيطه المانح

النبض لشرايين البقاء، وانحسرت المياه أو جفَّت، وربما تبخَّرت، وتبقى الملح المتقشف إلا من الجفاف،

صفحة كالدهر أو أطول، كلها ببياض الملح تتدثر.
من قتل البحر؟ ومن نزع عنه ونس الموج وثورته المتعرجة كالجبال؟، من أفناه حتى ظل كئيبًا ومرتعًا لعفاريت الزمن ودموع الكون؟، البحر يموت؟ أم ينام؟ أم يتوقف وقتيًّا عن وظائفه المقدسة؟،
البحر يفقد النطق وقد يفقد الإبصار، يختنق ظاهريًّا لكنه يعالج السكرات بالصبر على الجفاء".
هكذا استطاع أحد أبناء كوم النور ترجمة الكلمات المكتوبة بلغة القدماء على جدار انتشله الحاج جابر الكنفاني من الردم الخارج من أرض بيته تمهيدًا لإعادة بنائه بالأسمنت المُسلح.
وتطوَّع الشيخ كامل الذي عجز الناس عن تتبع أو مواصلة عدِّ سنوات عمره، بتفسير ترجمة الكلمات المنقوشة على الجدارية.
قال الشيخ بأنه سمع من أجداده ما سمعوه من أجدادهم بأن كوم النور كانت قبل آلاف السنين بلدةً ساحليةً، يصلها ماء البحر عن طريق مضيقٍ تتسرب من خلاله المياه المالحة عبر قناةٍ كبيرةٍ تمرُّ بأكثر من نصف مساحة البلدة، وهذه الترجمة وتلك الفتوى منحت الكثيرين تفسيرًا وجيهًا لفقر كوم النور زراعيًّا.

جاءت الحكومة مُمثلة في مناديب وزارتيْ الآثار والداخلية للتحفظ على الكشف الأثري المهم وفحصه وتحليل وتدقيق ما صرَّح به من نقوشٍ قابلةٍ للتأويل.
ثمة عداوةٌ دائمةٌ بين الكومونارِيين والحكومة تأصَّلت بينهم عبر السنين، وثمة انعدامٌ للثقة دفعهم لإخفاء أي شيء يُطل عليهم من تحت أرض كوم النور ليُذكرهم بأجدادهم.
علماء القرية والمتمثلون في الدكتور سليم المدرس في الجامعة والأستاذ صبحي مدرس العلوم في المدرسة الإعدادية طلبا مع مجموعةٍ من الشباب المتحمس عقد اجتماعٍ طارئ لمجلس الأعيان يحضره الشيخ كامل والحاج جابر الكنفاني وبعض المتعلمين لمناقشة أمرٍ جللٍ.
بعد مناقشاتٍ ومداولاتٍ بعضها علمي وبعضها اقتصادي والبعض الآخر يكمن في علاقة كوم النور بالحكومة، اقترح الدكتور سليم قيام وفدٍ من الأعيان بتقديم مذكرةٍ إلى السيد الوزير الدكتور اللواء المحافظ بتبني مشروع عملاقٍ لحفر قناةٍ تمرُّ بها المياه العذبة على أنقاض الممر المائي التاريخي القديم والذي بدا واضحًا بالتدقيق في خرائط القمر الصناعي، لتسهم الترعة العملاقة في النقل النهري والزراعة والسياحة الداخلية، تمهيدًا لتحويل كوم النور لأرضٍ متحفيةٍ تُحيطها الخضرة من كل جانب وتخترقها مياه النهر الأعظم.
بدا المشروع براقًا حاملًا الخير للجميع، وافق المجلس وقرَّر عرض التفاصيل على الناس بعد صلاة الجمعة في الجامع الكبير.
وبدا الأمر بعد تمام عرضه حلمًا قوميًّا لكوم النور يؤهلها لامتلاك رافدٍ للخلود يصلها بالنهر المقدس ويصبح امتدادًا له، هكذا تتجدد الأمجاد.
قابل المحافظ مشروع الكومونارِيين بتحفظ وريبة، ووعدهم بتشكيل لجنةٍ فنيةٍ لدراسة صدق النقوش على جدار أجدادهم، وكذا صلاحية التربة، والجدوى الاقتصادية للحكومة من عمليات الحفر ومد مياه النيل عبر مساحاتٍ جديدةٍ.
لم تبعث مقابلة المحافظ على التفاؤل، لكن أهل كوم النور انتظروا رد الحكومة، مرَّ عام أو يزيد، ولم يتلقوا ردًّا، أرسلوا برقياتٍ إلى جهاتٍ أعلى من المحافظ طالبين نتائج البحث وقرار الحكومة.
لم يتحصلوا على ردٍّ شافٍ من أية جهة، فقرَّر مجلس الأعيان الاجتماع من جديد.
كان اقتراح الدكتور سليم جنونيًّا أقرب إلى الخيال، أشبه إلى العصيان أو التمرد، أغلب الآراء اتفقت على أن اقتراحه قد يُسبب استفزازًا للحكومة وتصعيدًا للاحتقان القديم المتجدد.
طال أمدُ النقاش لأيامٍ توالت، واتسعت دائرة الاستعانة بالخبراء والأثرياء وآراء المخلصين والأصدقاء من البلدات المجاورة والصديقة.
وجاء قرارهم في النهاية بالموافقة على اقتراح الدكتور سليم بالبدء في حفر النهر الصغير بجهود وإمكانيات وتبرعات أهل كوم النور وأهل كل البلدات التي سيمرُّ الرافدُ على أرضها وصولًا لمجرى النهر الرئيسي، مع ترضية ملاك الأراضي التي ستمر عليها القناة الجديدة.
بدا الأمرُ فانتازيًّا في البداية، ولكن مع فتح باب التبرعات بالمال والمجهود والأفكار، ومع افتتاح عائلة الطنانية صندوق التبرعات بما يُعادل نصف ثروتهم، ومع تتابع آلاف الشباب بالتبرع بجهدهم ووقتهم، ومع مباركة شيخ الجامع، والحلم الذي رآه خادم سيدي أبو المعاطي والذي تضمن مشهد كوم النور عائمةً فوق نهرٍ من أنهار الجنة، كلها عوامل ارتقت بروح الناس وارتفعت بسقف أحلامهم.
سنواتٌ مرَّت بإنجازاتها وعثراتها والحلم يرتقي سلمًا بعد آخر حتى اقترب من مناطحة الحقيقة.

آلاف الأمتار من الحلم تنتظر عذوبة الماء لتروي عطش السنين وملوحة الماضي السحيق، وتبدأ التأريخ لحضارةٍ جديدةٍ على أرض كوم النور.
وبينما يجتمع المهندسون والمقاولون مع مجلس الأعيان بحضور الدكتور سليم والأستاذ صبحي ليخبروا الجمع بقرب الانتهاء من أعمال الحفر وتمهيد الطرق إذ لم يتبق إلا أمتارٌ قليلةٌ ويصلون بأعمالهم لنقطة الوصل والاتصال بالنهر، والتي يجب أن تتم بتصريحٍ رسمي وموافقةٍ كتابيةٍ من الحكومة.
اقتحمت الشرطة بزيها غير الرسمي الاجتماع، وتم القبض على الجميع.
طال اختفاء الجمع لشهرٍ أو يزيد، تجمَّع عشرات المئات من كل الأطياف والعائلات في كوم النور وبعض عائلات البلاد المجاورة، وبعض الحقوقيين القادمين من بلاد العاصمة، تجمَّعوا أمام مبنى المحافظة ومديرية الأمن، وقرروا الاعتصام لحين الكشف عن مكان الأعيان ومن معهم.
طلب المحافظ ومدير الأمن مقابلة وفدٍ من المعتصمين.
خرج الوفد ليبلغوا الناس قرارهم بفض الاعتصام والعودة إلى كوم النور وانتظار الأعيان.
في اليوم التالي عاد الأعيان ومن معهم سالمين، إلا من قليل، توجهوا مباشرة إلى الجامع الكبير، تجمَّع الناس في الجامع واكتظت شوارعه المحيطة بالآلاف ينتظرون منهم تفسيرًا وحكيًا وافيًا.
كبير الأعيان يتحدث إلى الناس عبر مكبرات الصوت وعينه زائغة هنا وهناك تلمح الآحاد من أفراد الأمن السريين في أرجاء الجامع وسط الجموع.
خطابه كان مقتضبًا دامغًا حاسمًا:
"يا إخوانا استهدوا بالله، فيه دولة من دول الجنوب عملت سد كبير حجز معظم مية النهر عن بلادنا، النهر كله مُهدد بالجفاف وممكن كمان يخلص خالص، بس الحكومة الله يعمر بيتها وعدتنا إنها هتردم القناة بتاعتنا على نفقة الدولة".
وسكت الجميع.... لدقائق.
حتى اخترق الصمت صوتٌ مجهولٌ من وسط الجموع داخل الجامع يهتف: "تعيش الحكومة، تعيش الحكومة....."
ويُردد الآحاد وراءه.

(10)

سِيد المأمُور

الموتُ في بلدتنا كوم النور شأنه شأن الميلاد، يبدأ بالتأثر وينتهي بالنسيان.
ثمة اتفاقٌ غير مُعلنٍ أو موثقٍ يُلزم كل الكوموناريين بحضور جنازات موتاهم وتجمعات العزاء الحاشدة.
وعندما يرتبط ذكر الموت باسمٍ من أسماء الأعيان، فإن الأمر يتخذ شكلًا من أشكال الحضور المُمنهج والمنظم والأكثر تقديسًا وإلزامًا للجميع.
اعتدنا سماع إعلانات الموت من صوت المؤذن الذي يعتلي درجات مئذنة الجامع الكبير، ليعلو فوق الهامات والبيوت، مُقتربًا من السماء، مُحلقًا على فمه بكلتا يديه إيذانًا بتوثيق الموت على صفحة الإدراك.
هذه المرة يأتينا صوتُ المؤذن مُبللًا بدموعه، مُعلِنًا موت الشيخ فاروق ألوان "خادم مقام سيدنا أبو المعاطي"، المحبوب من الجميع، وصاحب الثوب المُرقع بقصاصات تصطبغ بكل الألوان، حتى

أطلق عليه الأطفال والصبية لقب" فاروق ألوان".
لم نعرف له اسمًا غيره، كذلك لم ينتبه أحدٌ لتذكر اسمه الأصلي أو حتى سؤاله عنه، لكن نساء بلدتنا كُن يرددن دومًا بأنه "راجل بركة وليه كراماته".
في كل الأحوال يبقى الموت هو بطل المشهد، وتتنحى الأسماء أمام تعاظم العِبرة وغزارة العَبرات.
ثمة اختلافٌ يظهر جليًا في جنازات الفقراء ومن ليست لهم أصولٌ كومونارية جلية، يكتفي الناس بالترحم عليهم وتذكر قدرٍ من محاسنهم، ويتركون لنظرائهم من البسطاء والتابعين والطيبين مهمة تشييع الجنازة، وفي الأغلب لا يتم تدشين العزاء.
انتهت صلاةُ الجنازة وبدأت مراسمُ التشييع الأخيرة باصطحاب نعش الشيخ على أكتاف مُحبيه من فقراء البلدة حتى مقابر من لا مقابر لهم والتي أسماها الكومونياريون "مقابر الجامع".
الشيخ فاروق رفض الالتزام بخط السير المعروف والمُحدد سلفًا، النعش يتثاقل على أكتاف حامليه، ويُدير ذاته رغمًا عن محاولات السيطرة عليه وإجباره بالطريق الصحيح.
النعش يُحرك الأكتاف الحاملة ومن ورائها الناس متجهًا صوب حدود البلدة القبلية، يُهرول بهم لبضعة كيلومترات حتى يستقر تمامًا على عتبات مركز الشرطة في بلاد البندر.
مشهد النعش ومن ورائه المئات أمام باب المركز حوَّل الجنازة إلى أزمةٍ حقيقيةٍ للجميع، الناس خائفون من ردة فعل العساكر، لكنهم على كل حالٍ لا يستطيعون ترك الشيخ فاروق بمفرده.
ساعاتٌ من المحاولات البائسة وغير المُجدية لإثناء الشيخ فاروق عن المكوث على عتبات المركز، حتى ظهر من بين الناس رجلٌ غريبٌ عنهم يرتدي زي الدراويش يصيح في الجميع:
"محدش يحاول يا غلابه، ألوان مش هيرجع غير لما يخرجله راجل البيت"، قالها الرجل ثم اختفى.
لم يستغرق الأمرُ كثيرًا حتى فهم الجميع أن المقصود برجل البيت هو مأمور المركز بشحمه ولحمه، وهو التفسير الذي بدا مُرعبًا في ذاته.
استقرت الأنباء على مكتب "البيه" المأمور، فكان رده صارمًا وقاطعًا: "مشُّوا المجانين دول من قدام المركز بدل ما أخرج وأضربهم بالنار".
الجنود وصغار الضباط اكتفوا بإقناع الناس بالاستمرار في محاولة سحب النعش بعيدًا عن المركز حتى لا يتفاقم الأمر وتُنتهك حرمة الموت.
حاول الناس مراتٍ ومراتٍ، ارتدت الشمس ثوب غروبها، وبدأ الكثيرون إما خوفًا أو مللًا في الانسحاب والعودة إلى كوم النور، تعب من تبقى في تناوب حمل النعش على الأكتاف فأنزلوه مستقرًا على عتبة المركز مُرددين:

"إحنا زهقنا، منك للحكومة بأه يا شيخ ألوان".
هنا جاء أمرُ المأمور بتحميل النعش في صندوق عربة المركز وإلقائه على أبواب مقابر كوم النور، وبينما يستعد العساكر لتنفيذ أمر قائدهم حتى ظهر الدرويش الغريب، رافعًا يُمناه للجميع آمرًا بالتوقف، فأطاعه الكل من غير مبرر، وتجمَّع الناس حول النعش من جديدٍ.
رآه الناس يقتحم أستار الموت، يرفع غطاء يفصل الشيخ ألوان عن الدنيا، يهمس في أذنه الميتة، ويُطأطئ رأسه أكثر ليستمع لشيء لا يسمعه الناس ثم يومئ برأسه متفهمًا، ثم يعاود الحديث الغامض.

في النهاية يُعلي صوته هذه المرة أمام الناس والعساكر صائحًا: "روَّح إنت بأه يا ألوان وكفاية كده، أنا هتصرف وهقابلك بعدين".
ثم يُشير بيسراه آمرًا الناس بحمل النعش من جديد، فيحملونه خفيفًا كريش الطير، ويصحبونه بلا أدنى عناء حتى مقابر الفقراء.
ويتلصص البعض على ما تبقى من فعل الدرويش الغريب، يرونه يتجه إلى داخل المركز، يقتحم مكتب "البيه" المأمور، يُغلق الباب، بعض الضباط والجنود يحاولون الدخول لمنعه أو طرده، يجدون الباب مُغلقًا من الداخل، يطرقون الباب بحدَّةٍ، لم يُجبهم أحدٌ، يقتحمون المكتب بعد كسر الباب فيجدون المأمور جالسًا وحيدًا ناظرًا إلى اللاشيء أمامه.
أيام وتم إصدار أمر بنقل المأمور من نواحينا، وقيل بأن القرار بناء على طلبه الشخصي.
تعددت الحكايات الشارحة، وتباينت الأساطير المُفسرة، لكن ظل أهمها على الإطلاق ما قاله شيخُ الجامع بأن الشيخ ألوان أراد الحج منذ شهورٍ بعد أن أكمل بكلِّ ما ادَّخر في حياته تكاليف السفر، وعندما ذهب إلى مركز الشرطة لينهي الأوراق الرسمية المطلوبة، اكتشف الجنود بأن الشيخ لا يمتلك شهادة ميلاد ولا بطاقة هوية، فأخبروا المأمور، والذي بدوره ركل الشيخ على مؤخرته وطرده من المركز آمرًا العساكر: "طلعوا الراجل المجنون ده بره".
وأكمل البعض الأسطورة بأن الدرويش الغريب هو ذاته سيدنا أبو المعاطي– الله يرحمه- صاحب أهم وأقدس مقام لأولياء كوم النور.
قرَّر البسطاء نقل رفات الشيخ ألوان إلى منزله الفقير، وابتنوا عليه مقامًا أسموه مقام "سِيد المأمور"، ونقشوا كعادتهم الأسطورة على جدران البيت تأريخًا لكرامات الشيخ ألوان.
في صدارةِ المقام علَّقوا عمامة الشيخ البيضاء منقوشًا عليها بخيوطٍ حريريةٍ خضراء: "عاش عبدًا، ومات سيِّدًا".

(11)
وَمِنَ النُّورِ مَا قَتَلَ

أربعُ سنواتٍ من الانتظار.
الكلُّ يترقب الموعد الذي حدَّدته الحكومة لبدء سريان نور الكهرباء في تلك الأسلاك المخيفة التي زُرعت في كلِّ مكان.
هناك شائعاتٌ تتحدث عن إمكانية تشغيل الراديو مباشرةً بواسطة الكهرباء من دون انقطاع.
البعض يتحدث عن اختراع التلفاز الذي يدخل البيوت فينقلها إلى البندر وينقل البندر إليها، والبعض يحلمُ بتلك الشمس التي ستسطع في جوف العتمة ليلًا فتُحيل الحياة إلى نهارٍ مستمرٍّ لا ينام.
في بيتِنا بدأنا ترتيب الاستعدادات بشكلٍ مختلفٍ، أبي أطلق نذرًا بأن يذبحَ عجلًا للغلابة في أول أيام النور، أمي قررت صنع قُرَص وكعك توزعه في المقابر وهي تُخبر المرحومة أمها بخبر ميلاد النور، تمامًا كما كانت تفعل مع كل مولودٍ جديدٍ لها.
أنا وإخوتي قرَّرنا أن نُحرر صغار العصافير التي اصطدناها من فوق شجرة تستند على جدران بيتنا منذ زمنٍ لا ندركه.
شيخ الجامع الأكبر في قريتنا يعتلي منبر الخطابة ويزف البشرى للجميع: "سوف تبدأ الحكومةُ في ضخ النور على حياتنا بدءًا من صباح الغد".
المشاعرُ متخبطةٌ أحيانًا، متضاربةٌ أحيانًا، الكلُّ يتفق على مبدأ الابتهاج.

العمدة يُشيد سرادق في الجرن الكبير لاستضافة المسئولين القادمين من المحافظة والبندر احتفالًا بهذا الحدث الفريد.
عم أبو عزوز البقال في حيرةٍ من أمره، لا يدري كيف يفرح بمولد النور المُنتظر وفي دخول الكهرباء خسارةٌ كبيرةٌ لتجارته، فهو أكبر مستورد للمبات الجاز وكلوبات النور بأحجامها المختلفة من بلاد البندر البعيدة، أضف إلى ذلك المُستلزمات وقطع الغيار من شرايط وكتاين وإبر وأدوات التنظيف والصيانة.
عم بيشوي أفندي الذي يعمل (حاجب) بمحكمة البندر وينـاديه النـاس بسيادة المستشار، يؤكد بأن التلِفزيون سيجلب لنا عبد الناصر بصورته وشحمه ولحمه وكذلك ست النـاس والكل أم كلثوم.
عم الشيخ عبد الفتاح، شيخ الكُتاب يتندَّر ساخرًا من الجميع مُرددًا بأن الأمر لا يعنيه لكونه كفيفًا.
تمرُّ الليلة الأخيرة كدهرٍ بأكمله، النـاسُ تقبَّلت بفكرةِ النوم فقط لتستدعي الحياة الجديدة القادمة في أحلامهم.
وأنا أقضي ليلتي ناظرًا للمبة الكهرباء المظلمة في انتظار مخاضها المرتقب، أُحدِّثها وتتحدث إليَّ.
بلدتنا تصحو قبل أذان الفجر، الرجال يُصلون في الجامع الكبير، النساء يبدأن في تحضيرات تفاصيل الاحتفال، الأولاد لن يذهبوا اليوم للكُتاب ولا إلى المدرسة، حتى الكبار قرروا تأجيل الذهاب إلى الغيطان إلى حين.
طلع النهار المبروك، ولم تسطع الشمس.
الغيم يملأ سماء البلدة، لم يترك نـافذةً أو بصيصًا من صفاء تنفذ منه الشمس لتصافح عيون النـاس.
يبدأ الكبار والمسئولون في التوافد، العمدة يأمر الغفر بإطلاق النـار في الهواء احتفالًا.
كل أهل البلد يصطفُّون في سرادق العمدة الكبير، الذبائح تتجمع ليتم نحرها مع أول صرخة حياة للمولود المنير الساطع.
فجأةً يسمع الجميع صياح الأطفال: " هيييييييييييييييه، النور جه... النور جه,... النور جه".
العمدة لم يُدرك أهمية توصيل ولو لمبة واحدة في سرادق الاحتفال.
النـاس مُبتهجون، النساء يزغردن، الأطفال يلعبون في كل مكان، الكل يصافح الكل، المسئولون يتبادلون التهاني مع العمدة والأعيان.
وأنا أُقرر الاعتكاف في بيتنا، أنظر مباشرةً في لمبة الكهرباء، لا أستطيع إطالة النظرة، أشعر بالارتياح وبالوجع.
يأتي علينا الليل، الكل يضئ والكل يُضاء، ولم يستطعْ أحدٌ إطالة النظرة في وجه النور، أشاع البعض بأن الكهرباء ليستْ إلا عِفريتًا يتجسَّد في وهج النور.
السماء الحُبلى تأبى إلا أن تشاركنا احتفالنا، سيلٌ من قطرات المطر الكثيفة ينـهمرُ فوق الجميع محمولًا على أجنحة ريحٍ عاصفةٍ، تغرق الأرض بعد دقائق، ويحتمي النـاس بالوقوف أسفل سرادق العمدة والأعيان، أصواتٌ مُخيفةٌ مصحوبةٌ بوهجٍ كالنـار تنبعث من أسلاك النور، الريحُ تُطيح بأعمدة الكهرباء، وتسقط بوهجها على الأرض وفوق سرادق العمدة، الأسلاك صعقت الكثيرين، وحرقت السرادق، وتحوَّل الاحتفال إلى هرج ومرج لم نره من قبل، وانتهى اليوم بأكبر سرادق عزاء عرفته كوم النور.
أعاد النـاس لمبات الجاز وكلوبات النور، سادت حالة الحزن وخيبة الأمل في كل النفوس إلا عم أبو عزوز البقَّال، رآه البعض بعد صلاة الجنـازة على شهداء النور يُصلي ركعتين حمدًا وشكرًا لله.

الحكومة قطعت تيار الكهرباء لشهورٍ عن بلدتنا، وبعثت خبراءها لإصلاح ما فسد.
ظلت قريتنا سنواتٍ ترفض نور العِفريت، وعندما أرسلت الحكومة أمرًا للعمدة بأن يضئ نور الكهرباء في دوار العمودية حتى يعتادَ الناس عليه ويتبعوا كبيرهم، تجمَّع الناس ورجموا الدوار بالحجارة، فأرسل العمدة إشارة إلى المركز، قال فيها:
"الناس في بلدنا لسه قدام عيونهم زمن على ما تاخد وتتعود عالنور، ربنا يرحم موتانا وموتاكم".

الكلُّ بائسٌ، الكلُّ يائسٌ، الإحباط يُسيطر على عقول وأحلام وطموح الجميع في كوم النور، رغبة عارمة في الانتهاء تُظلل كل الألوان بالسواد.
رغبةٌ صادقةٌ في إنهاء العداء المتأصِّل بينهم وبين الحكومة واستبداله باللامبالاة وعيشة العدم.
المرضُ بات سرطانيًّا ينتشر في كلِّ مكانٍ، تنحَّى البسطاءُ عن الرغبة في استجداء الحياة، توقَّف الأثرياء عن الرغبة في رغدها وعزف الشبابُ عن الإقبال على التعليم أو الزواج.
الأطفال خاصموا لعب الشوارع، النساء توقفن عن هواية النميمة وشيخ الجامع تغيَّب للمرة الأولى في حياته عن خُطبة وصلاة الجمعة.
الناس قاطعت نقطة الشرطة والمستشفى الحكومي ومكتب البريد.
وابتكر الأستاذ سعيد الكرماني المثقف الأول في كوم النور والذي عمل بالتدريس بعض الوقت قبل أن يعتزلَ العمل ويتفرغ للبحث والتنقيب عن آثار وكنوز كوم النور وجمْعها في مُجلدٍ كبيرٍ يتركه للأجيال القادمة التي من الممكن أن تفكرَ ثانيةً أو تعيدَ النظر في ممارسة فعل الحياة، ابتكر وسيلةً جديدةً للرفض والتنحي.
علَّق على باب بيته لوحةً كبيرةً بالخط الأسود منقوشًا عليها: "سجن أولاد الكرماني".
وانتقلت العدوى سريعةً إلى كل بيوت كوم النور، بيوت البلد كلها مكتوبٌ على أبوابها نفس المعنى: "سجن الطنانية، معتقل العجايزة، زنازين أولاد الكنفاني، قبور البلايطه،.....".
الكارثةُ الأكبر والتي أرَّقت كبار وحكماء كوم النور ودفعتهم للشعور بفداحة ما آلت إليه الأمور ظهرت جليةً حينما اقتحمت الست إحسان الداية دوار العمدة لاطمةً على خدودها:
"ياااا عمدة، ياااا عالم مفيش واحدة بتولد ولا واحدة بتحبل في البلد، بيتي اتخرب يا كبيرنا، ودابر الكومونارية هينقطع".
لم يكن حال العمدة أو الأعيان أفضل كثيرًا من أهل البلد، لكنهم من واقع المسئولية المُلقاة على عاتقهم قرَّروا حتمية إيجاد مخرجٍ يُطل به الناس على الحياة من جديدٍ.
اجتمع العمدة بمجلس الأعيان ومعهم كبار السن والحكماء، الأمر الآن متعلقٌ بقضية البقاء من أساسها.
اتفق الجميعُ على حتمية إيجاد وسيلةٍ لإعادة الأمل في النفوس، وخلق سببٍ جديدٍ للحياة.
المناقشاتُ كلها تمحورت داخل قوالب مُعادةٍ ومستهلكةٍ، ما إن تُطرح على الجمع حتى تُرفض في حينها.
أيامٌ تعدو من وراء أيامٍ، نقاشاتٌ وأطروحاتٌ تُولد لتموتَ بلا جدوى ولا طائل، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفوس الجميع.
إلى أن جاءهم صباحٌ يبتسمُ في وجه السماء وباطن الأرض، يقتحم عم عبد المقصود أبو طالب اجتماع العمدة والأعيان وفي يده لوحةٌ حجريةٌ من تلك التي اعتاد الكومونياريون على استخراجها من تحت الأرض قادمةً من عند الأجداد.
عم عبد المقصود يصيحُ في العِمم المجتمعة:
" الجد باعتلكم الحل، البهيمة نقرت أرض الزريبة وجابت لنا رسالة كومانور".
التفَّ الجميع حول الجدارية الجديدة، ومن فورهم أمروا باستدعاء الأستاذ سعيد الكرماني لفك طلاسم لغة الأجداد، وكانت الرسالة المنقوشة تقول:

"من الملك الساحر، كومانور العظيم، إلى أحفاده وعباده خلف جدران الزمن، لا تستعدوا قلوبكم، أنقذوا الحب واتقوا موت القلوب، اصنعوا حظكم بأيديكم ولا تنتظروا الذهب، يا ابن العظماء، اصنع مجدك، اقفل عليك بابك، اكتفِ بما تصنعه يداك، احترم تاريخك ليطيعك مستقبلك".
وصمت الجميع، وانحنت الرؤوس ناظرةً للأرض، التأويلاتُ كلها مُباحة، والرمزية تبدو في ذات الوقت منعدمة، لم يتبق سوى أن يعكف الحكماء على كتابة دستورٍ جديدٍ يُترجم للعوام رسالة الجد الأكبر.
وتطوَّرت الاجتماعات لتشمل مزيدًا من الحكماء والفقهاء والمثقفين، وسار الخبر بين الجميع، كومانور الجد بعث الأمل، والكبار يكتبون تفاصيل الوصفة السحرية القادمة من عالم الأجداد.
اعتكف المجلس شهرًا كاملًا في دوار العمدة، متلفحين بانتظار الناس، حتى سمعت كوم النور النداء يخرج من أبواق مئذنة الجامع الكبير:
"الله أكبر، الله أكبر..... يا أهل كوم النور... الكل يسيب الدنيا ويتجمع في الجامع دلوقتي".
وتجمَّع الناس داخل الجامع وحوله حتى امتلأت كل الطرق المؤدية لأبوابه عن آخرها، رجالًا ونساء وأطفالًا، مسيحيين ومسلمين ينتظرون طوق النجاة القادم من عند الأجداد والساكن في بيان الكبار.
وبدأ العمدة في تلاوة البيان:
"بسم الله نزرع، بسم الله نبني، نُمهد جسور العِلم، نبني حولنا سورًا يكفينا ونكتفي، لا نُشبه أحدًا، بسم الله

نرضى، نحكم بيننا بالعدل، بسم الله نعشق الحب ونغرس بذور السعادة:
بعد الاطلاع على رسالة الجد الأعظم وانتهاء مشاورات الكبار والحكماء قرَّر مجلس الأعيان الآتي:
أولًا: بناء سور يناطح النجوم، يلتف حول كوم النور حاميًا ومحافظًا على هويتها وأحلامها يحوي بداخله أكبر

آبار السعادة.
ثانيًا: تشكيل مجلسٍ من حكمائنا يفصلون فيما نختلف عليه وما يشجر بيننا بعدل الله دون النظر لجاه أحدنا أو

أصله أو انتسابه أو عائلته.
ثالثًا: نشر العلم والوعي بين الجميع واجبٌ قومي على كل متعلمٍ وقادرٍ.
رابعًا: التنسيق بين الكلِّ لتحديد المحاصيل التي تتم زراعتها على أراضينا حتى نصل للكفاف.
خامسًا: لكل فردٍ في كوم النور حق ونصيب في ثروات الأجداد ومكتسبات الأحفاد.
سادسًا: تقديس الأرض واجبٌ، احترام الزرع واجبٌ، الحفاظ على الماء القادم من النهر واجبٌ وصوْن المُنجزات

واجبٌ.
سابعًا: كرامةُ كل كومونوري وصوْن حريته وحياته وآدميته واجبٌ قومي لا تفريط فيه.

ثامنًا: يُعاقب من يخون عهدنا، أو يُكدِّر صفو أمننا وأماننا، أو يُثير الفتنة على أرضنا، أو لا يمتثل لدستورنا، كلٌّ حسب جُرمه وما يتفق عليه مجلس العدل، بلا استثناء أو محاباة.
تاسعًا: يُنشر الدستور الجديد على جدران الجامع الكبير والكنيسة العتيقة ويبدأ العمل به بعد موافقة نسبة لا تقل عن ثلثي الحاضرين من أهل كوم النور.
هلَّل الناس وانطلقت الزغاريد، واتجهت فوهات بنادق الغفر إلى السماء تقتل ما تبقى من يأسٍ تحت الغيم.
وانسحب شيخ الجامع من المشهد تمامًا مُرددًا: "ده كُفر، غضب ربنا هيطول الكل".
دقائق وانسحب راهب الكنيسة، أو من كنا نطلق عليه "شيخ الكنيسة".
اتَّجه شيخُ الجامع وبرفقته شيخ الكنيسة إلى مكتب الباشا الكبير "بتاع الأمن"، وتطابقت مذكرة كل منهما الموجهة إلى الدولة:
"ما يحدث في كوم النور عصيان مدني على الدولة، وفرض نظام أشبه بالحكم الذاتي، وانسياقٌ وراء نقوشٍ وثنيةٍ من شأنها دفع الناس إلى الإلحاد والكفر بالله".
ساعاتٌ بعد لقاء الشيخيْن بممثلي أمن البلاد، فوجئ الكومونـاريون بجنود الدولة مدججين بالسلاح والمصفحات يحاصرون دوار العمدة والجامع الكبير، وأبواق الجامع تعلن حظر التجوال وفرض حالة الطوارئ.
واتجه الجنود وقادتهم لاعتقال العمدة ومجلس الأعيان، وصاح الكرماني في الناس:
"البند الساااااابع في الدستور يااااا بلد".
حافظ الكومونـاريون على صمتهم، تحرَّكوا راسمين بأجسادهم دوائر من ورائها وأمامها دوائر حول العمدة والأعيان لمنع القبض على كبارهم، وبات المشهد مُرشحًا لتصعيد لم يتخيله الأمن ولم يحسب الناس عواقبه.
وتوقَّف الزمنُ معتكفًا لدقائق حتى تتنزلَ الرحماتُ على البسطاء، ظهر الباشكاتب مهرولًا من بعيدٍ يصيح في الناس والجنود:
"اليهود دخلوا البلد، الجيش اتدمر وانسحب، ولادنا بيموتوا، والأرض بتضيع، والريس عايز يمشي".
تمسَّك الزمن باعتكافه للحظات، حتى تحرَّك الجانبان في تزامنٍ مفاجئ، تحللت الدوائر، وانسحب الجنود دون انتظارٍ لأوامر قادتهم، واتجه الجميع إلى دوار العمدة يستمعون لمذياعه.
خرج الناس في البندر والبلاد المجاورة يهتفون للحاكم أن يستمر.
في كوم النور، لم يخرج أحد، تجمَّع الكلُّ في بيت البلايطة يواسون أنفسهم باستشهاد ابن البلايطة وزينة شباب كوم النور في حرب النكسة.
صاح الكرماني: "البند السادس والساااااابع في الدستور يااااا بلد".
قرَّر مجلس الأعيان توجه نصف شباب كوم النور للتطوع في صفوف الجيش للثأر لحياة الكومونـاري الشهيد.
وبينما ينصرف الناس ظهر من بعيدٍ شيخ الجامع وبرفقته شيخ الكنيسة، فصاح الكرماني:
"البند التاااااااامن في الدستووووور يااااا بلد".
وهنا تجلت الوحدةُ الوطنيةُ في أبهى وأعدل معانيها وأشكالها، إذ لم يُفرق الناس في تنفيذ البند الثامن من الدستور الكومونـاري بين مسلم ومسيحي.

" ربنا يرحم الجميع".

(13)
مُكَعَّبَاتُ الْعِشْقِ

الحُب في كوم النور لفظة لم نعتدْ سماعها بين الناس، لم يسعَ أحدهم أن يبحث في فحواها، أو أن يتلفظها لأجل امرأةٍ أو أن تتلفظها امرأةٌ لأجل رجل.
وعينا على الدنيا ولم نستخدم الكلمة إلا في مدح الرسول: "حبيبي يا رسول الله".
في بلدتنا هناك مصطلحاتٌ أكثر أُبهةً وقدسيةً:" العيب، الحرام، الأصول، الستر، العِرض، الزواج، الموت.....".
ثقافة الحب حتى بين الأبناء والآباء تختفي دائمًا وراء اللائق وغير اللائق:
"البنت لازم تسترجل علشان متطلعش مايصه وتجيب العار لأهلها، والواد لازم ينشف من صُغره علشان ميطلعش منسون وخايب".
هكذا كنا، وهكذا اعتدنا.
واقعيًّا لم يكن في الأمر شيء خارجٌ عن المألوف، أو ثمة مشكلة تؤرق أحدنا، فأنت لا تشعر بفقد ما تجهله، ولن يستوحشك فراق من لم تقابله أو تعرفه.
شيخ الجامع كعادته حين يطرأ أمرٌ جللٌ ينادينا في غير موعد أذان، صراخ النساء يغطي حواري كوم النور، الجميع متجه ناحية حارة الطاحونة، النميمة تشتعل هذه المرة أكثر من أي حدث مرَّ بعمري الضئيل في بلدتنا العجوز، ولأول مرة يُمنع على الصغار معرفة الأمر أو التلفظ بشيءٍ يخصه.
وكعادتي أسبق الجميع، وأنتقل إلى مكان الحدث قبل ألسنة الشائعات، كوم النور تواجه كارثةً من العيار الغامض: "البت هند بنت الحاج إمام النحاس شنقت روحها فوق سطح الدار وسط الطيور".
النساء يضربن كفًّا بكفٍّ مع قليلٍ من مصمصة الشفاه، جميعهن يعلمن ما كان بين هند وزاهر ابن نصار الكلاف، وجميعهن يعلمن رفض الحاج إمام طلب زاهر ليد ابنته بسبب مهنة أبيه القديمة، وبدأت النميمة تأخذ مجراها لتفسر وتتنبأ وتؤكد وتنفي.
في النهاية لم يمضِ من الوقت أكثر من ساعة حتى بات كل فأرٍ في كوم النور يعلم بأن هند انتحرت عشقًا لزاهر الذي رفضه أبوها.
لم نسمع من قبل عن قصة حب في بلدتنا، ولأول مرة نجد أمامنا حالة انتحار والتي تعني في قاموس الدين والعيب والحرام والأصول "كُفر صريح"، أضف إلى ذلك لفظةً جديدةً في مُعجمنا هي "العار" حيث الانتحار والعشق مجتمعين.
ولأني الطفلُ الوحيدُ الذي تجرَّأ على دخول بيت الحاج إمام في هذه الأثناء دون أن يمنعه مانعٌ، ولأني المجنون الوحيد الذي تسلَّل إلى سطح الدار ورأى مهابة الموت المشنوق، ورأيت كذلك لونه الملتحف بالعار على وجوه النساء من أهل دار المُنتحرة، فقد تجمَّع حولي المئاتُ لمعرفة ما خفي عنهم، وليدعموا خيالهم بمزيدٍ من وقود النميمة وحكايات المصاطب لأعوامٍ قادمةٍ.
ولأن مفهوم العشق بين الكومونارريين بمفهومه المباشر ليس واردًا أو مفهومًا أو حتى يُحترم، فقد انتشر بين النساء ما قد يُشعل الأمر لحدودٍ أكثر بكثيرٍ من مجرد انتحار فتاة، حتى وإن كان الأمرُ برمته غير متعارفٍ عليه أو مألوفٍ في ثقافتنا.
شربات بنت البلايطه بدأت في غرس البذرة الأولى للفتنة:
"وإيه يا ناس اللي يخلي البت تشنق نفسها إلا لو كان حصل بينها وبين الواد ابن الكلايفه حاجه، الموت أحسن من العار، وربنا يستر على ولايانا".
كلام شربات يكفي لأن يُشعل كوم النور عن بَكرة أبيها.

الدم هو الحل.
الشرطة تدخل بلدتنا بعرباتٍ وكثافةٍ لم نعتد عليها، تُحيط بالحارة محل الحادثة، تمنع الجميع من الدخول إليها أو الخروج منها، تنشر عساكرها كذلك حول منزل المعلم نصار الكلاف، وتُصدر الأوامر بالتحفظ على كلٍّ من الحاج إمام، والمعلم نصار، وإرسالهما من فورهما للمأمور في مكتب ضابط النقطة.
والأمر كان حازمًا وصريحًا على لسان البيه المأمور:
"الموضوع لازم يتلم وميكبرش أكتر من كده، دي أعراض وربنا يستر عالجميع، لازم الكل يسمع الكلام وإلا كوم النور هتولع باللي فيها".
يصل "الباشا الكبير" مدير الأمن، يسمع من الجميع، ويُقرر ما هو مُلزمٌ للجميع:
"العزا هيتاخد بكرة في وجودنا، الكردون الأمني هيفضل لحد الأربعين، كتب كتاب الواد ابن الكلايفه على أخت المرحومه وبنت الحاج إمام الليلة اللي بعد تمام الأربعين، والفرح هيكون في وجودنا، لازم نراعي إن محدش هيفكر يتجوز البنت أخت المرحومة بعد اللي حصل".
سكت الجميع، والسكوت في بلادنا علامة للرضا، أو للقهر.
كلف "الباشا الكبير" المخبرين السريين بالانتشار في كلِ شوارع وحواري كوم النور وإذاعة شائعة مفادها بأن الشرطة وجدت بجوار جثة المنتحرة رسالةً مدونًا فيها سبب الانتحار.
الجميع بمن فيهم شربات بنت البلايطة باتوا يُرددون:
"هند انتحرت علشان جالها المرض البطال، ربنا يلطف بالجميع".

.....

صبيحة يوم الأربعين، عُلقت الزينات والأنوار في كلِّ مكان، كل كوم النور مدعوةٌ على الفرح، قرَّر مدير الأمن بأن كتْب الكتاب سيتم في نفس مكان الانتحار فوق سطح بيت الحاج إمام والذي يسع من الحبايب ألف.
يضع الحاج إمام يده في يد المعلم نصار وفوق أياديهم منديل الشيخ دكروري المأذون، والمشهد يكتمل ببطاقة هوية مدير الأمن والبيه المأمور شاهديْن على عقد القران وسط الزغاريد المزيفة للعشرات من النساء من بينهن شربات بنت البلايطة، وابتسامات مُجبَرة على وجوه الرجال بمن فيهم الحاج إمام.
لحظاتٌ وانعدم اتزان الجميع، كل شيء يترنح، ارتفع الصراخ :
"البيت بيقع، البيت بيقع يا إخوانا، إلحقوا انزلوا".
تحوَّلت الزغاريد لصراخٍ ونواحٍ واستغاثاتٍ، اختلط الحابل بالنابل، الكلُّ يُحاول في نفس اللحظة الهروب من مخرج السطح الضيق والوحيد، فانسحق الناسُ تحت أقدام الناس ومن بينهم "الباشا الكبير" و"البيه المأمور".

.....

المُحصلة النهائية لضحايا وخسائر الزلزال (لم نكن ندرك أن بلادنا من الممكن أن يزورها زلزال):
-انهدم بيت الحاج إمام.
-نجا البعضُ ومات آخرون.
-مات "الباشا الكبير" مدير الأمن، وماتت شربات.

ـتغاضت الشرطة عن طلقةٍ مستقرةٍ في بطن "الواد العريس" ابن المعلم نصار الكلاف وقيل إنه خرج ميتًا متأثرًا بجراحه من تحت الأنقاض.

.....

ماتت شربات وفي كوم النور ألف ألف شربات.

.....

ما زال الكومونـاريون يؤمنون بأن الزلزال لم يأت إلا غضبًا من الله على عار بيت الحاج إمام.

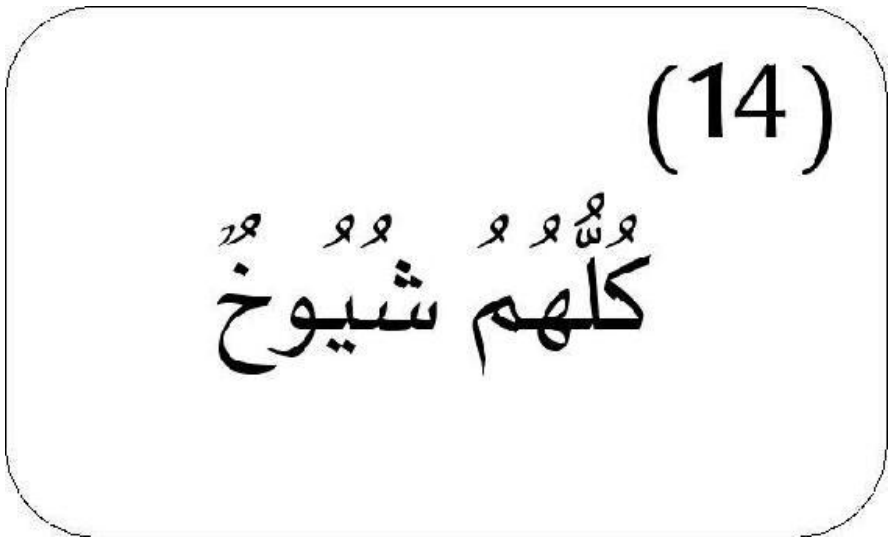

الحياة من دون حكومةٍ أفضل بكثير.

.....

"البداية"

قريتنا بدون ضابط النقطة وخفرائه أكثر أمنًا وهدوءًا، على الأقل بالنسبة للكثيرين.

الفضائياتُ تقول إن الحكومة اختفت بعد انتفاضة الشباب الكبرى، وأن "البيه الظابط" هرب، وأن الناس قرَّروا حماية أرواحهم وممتلكاتهم بأنفسهم.

ما يحدث كان برمَّته حلمًا للبعض، وكابوسًا لآخرين.

شيخٌ جديدٌ للجامع الكبير حلَّ على بلدتنا، ومع مرور العبث تحوَّل إلى مناضلٍ وإصلاحي، وعند حلول الليل تحوَّل إلى رجل أمن.

التف حوله كثيرون من شباب القرية، ببساطة رأى الناس بأن الله قد منحهم أخيرًا سلطة العيش بلا قيد، ورحابة الحياة بلا رقيب، مبدأ الثواب والعقاب عند الشرفاء تحوَّل إلى وازعٍ أخلاقي نابعٍ من الضمير والإيمان.

وحجم الإيمان بتلك المبادئ اختلف من شخصٍ لآخر، ومن فئةٍ لأخرى، وهنا تعملق دور شيخ الجامع الشاب ليصبح أداةً ارتضى بها البسطاءُ لتطبيق عدل الله على الأرض، ولن أبالغ إذا قلتُ بأن مكانته حينئذ اقتربت عندهم من مكانة الأولياء.

الأعيان في بلدتنا بات همهم الأول التودد إليه وتقوية شوكته ومدح حكمته وبلاغته على صغر سنه، اختلفت كذلك معايير الزواج السائدة عند الأعيان، فالشيخ الشاب بات عريسًا فوق العادة لبناتهم.

سلطة القوة زالت وقابلة دومًا للزوال، وسلطة المال تزول مع زوال القوة المُسخَّرة لحمايتها، لكن سلطة الدين لا تزول إذ تستمد قوتها وأبديتها من خلود الرب وبقاء العباد.

الشيخ الشاب ترك الحديث عن أحكام الدين، انشغل بتنظيم الأموال التي ظهرت بلا صاحب، وتنظيم اللجان الشعبية وكمائن التفتيش على أطراف البلدة، وأنفق وقته كذلك في حصر وإعادة البضائع التي سُرقت من المنافذ الكُبرى للتسوق أثناء الهوجة وأعاد معظمها البسطاء والشرفاء الذين استمعوا لفتوى الشيخ بحرمانية ما استولوا عليه، حتى ولو كان ساعتها بلا صاحبٍ أو رقيبٍ.

تطوَّر الأمرُ بلجوء الناس إلى شيخهم للفصل في ما اختلف عليهم أو شجر بينهم.

واتخذ الشيخ من مقر نقطة الشرطة المهجور مقرًّا للفصل بين منازعات الناس من أهل القرية والقرى المجاورة.

واتخذ بعض المتطوعين من سلاح الغفر الذي تركوه قبل هروبهم أداةً لحفظ الأمن داخل المحكمة الصغيرة وكذلك سلامة شيخهم القاضي.

تجمهر الكثيرون أمام بيت العدل النابت يُطالبون شيخهم بالسماح بتشكيل قوةٍ مسلحةٍ مُقسمةٍ إلى ست فرق، كل فرقة مؤلفة من عشرين شابًّا، يتم توزيعهم على حدود القرية وطرقها الخارجية كضمانةٍ لصدِّ غارات الهجامة والعصابات الجديدة التي تم تشكيلها بعد الهوجة وهرب الحكومة، وعلى رأسها عصابة العدوي التي تجبرت وعاثت في أراضي بحري فسادًا وإفسادًا.

وافق الشيخ، وعكف على انتقاء الشباب المتطوع لتشكيل الجيش الصغير.

ذاع صيت البلدة والأمان فيها، لجأ إليها كل صاحب مال يخشى على ماله من النهب أو الزوال.

الأثرياء يتوافدون على القرية واحدًا تلو الآخر، اقترح أحد الأعيان أن يتم من جديدٍ تشكيل مجلس عرفي من الأعيان والمتعلمين في القرية لفحص طلبات اللجوء الأمني وانتقاء من يتجنس بجنسية البلدة.
وافق الشيخ الشاب.
كانت أول توصية للمجلس الجديد، أن يتم تحصيل ضريبةٍ شهريةٍ من كل لاجئ ثري للإنفاق على متطلبات الفرق المسلحة والعاملين ببيت العدل وتخصيص رواتب ثابتة لهم وإنهاء حالة التطوع، وكذلك..... وكذلك تحديد راتبٍ شهري للشيخ الشاب..... مُغري.... جدًّا.
وافق الشيخ.
قدَّم المجلس توصيةً لشيخهم بتشكيل مجموعاتٍ شبه مسلحة لحفظ الأمن داخل شوارع القرية وحفظ النظام فيها، وتنظيم جمع الضرائب وتسليم الرواتب للآخرين، ولأنفسهم.
وافق الشيخ.
ومع تعدد المهام وثقل الأحمال، أناب الشيخ عنه من يُصلي بالناس في الجامع إلا من صلاة الجمعة، كذلك أناب عنه من يقود القوة المسلحة، ومن يجلس في بيت العدل، ومن يسيطر ويوجه قوات حفظ الأمن الداخلي.
اجتمع المجلسُ في جلسة استثنائيةٍ تاريخيةٍ ليقرر حتمية أن يلتفت الشيخ إلى حاله ويكمل نصف دينه ويتزوج.
وافق الشيخ.
اختار بنت كبير اللاجئين، وكانت ليلة لم تشهدها القرية من قبل، وربما حتى الآن.
تنافس الأعيان والوجهاء واللاجئون الأثرياء في نحر الذبائح، وصرف المكافآت على القوات والموظفين، وتزيين الطرقات.
وباتت صورُ الشيخ تُزين الميادين والأشجار وأعالي البنايات.
نائب الشيخ لشئون القوات يظهر مهرولًا من بعيدٍ، يقترب هامسًا في أذن الشيخ:
"الحكومة رجعت".
انتفض الشيخ بابتسامةٍ مدفونةٍ لم يستطع إخفاءها، وسقطت عنه عمامته، انتشر الخبر بين الجموع المُهنئة، واجتمع المجلس بسرعة البرق.
فكرة المواجهة كانت حاضرة، العصيان، فكرة التحايل على الأمر كذلك كانت مطروحة.
اختفى الشيخ.
مجهولٌ غريبٌ عن بلدتنا يدخل المجلس ومعه فتوى مكتوبة وعاجلة من الشيخ الشاب بخط يده وتوقيعه:
"عاد المفروض، فاصنعوا المُفترض... عودوا إلى قبوركم... وتضرعوا"
لم يفهموا بشكلٍ كاملٍ مغزى الكلمات ورمزيتها، هذا إن كانت ترمز إلى شيء بعينه من الأساس.

.....

"النهاية"....
هرب اللاجئون من بلدتنا.
تفرَّق أعضاء المجلس واختفى أكثرهم.

الفرق المسلحة وجماعات حفظ الأمن تركوا سلاحهم في دار القضاء وخلعوا زيهم الموحد وتاهوا وسط الناس والدواب.
ظهر العدوي ورجاله في طرقات القرية من جديدٍ بعد انتصاف الليل.
الناس يبحثون عن الشيخ.
البعض يحتفظ بصورته تبركًا ومحبةً.
شيخ الجامع الجديد لا يعرف سلفه ولم يسمع عن شيخٍ بهذا الاسم أو الوصف من قبل.
أحدهم يقتحم على الناس جمعهم الأكبر صائحًا بينما يستمعون لخطبة الجمعة:
" شفته، شفته، أنا لاقيته... الشيخ لابس ميري وبيشتغل في جهاز الأمن".
أخرست الصدمة والمفاجئة عقول الناس وألسنتهم لدقائق، نظروا بريبةٍ لشيخهم الجديد.
تركوا الجامع للشيخ، وبلدتهم للحكومة والعدوي.

(15)
القَرْيَةُ النَّائِمُ أَهْلُهَا

المرضُ مهبطَ للموت، والموت منصة الإقلاع للروح.

يقرأ تلك الكلمات مجهولة المصدر على قصاصةٍ ورقيةٍ اصفرَّ وجهُها بفعل الحيرة والحسرة والتفكر، ملقاة على أرض غرفة نوم أمه، تحت سرير مرضها.

لا يدري كيف أتت هذا المكان وفي هذا الوقت تحديدًا.

"اللهم اجعله خير"، يُرددها في دخائله ناظرًا إلى جسد أمه الذي أرهقه المرض وتوابعه.

يجتهدُ ليتجنب التفكير في احتمالية اقترابِ الأجل، أو أن القصاصة الورقية نذيرُ شؤمٍ وإشارة على قُرب الوداع، وهو يعلم جيدًا أن للفراق لغةً لا يُجيدها إلا كل من مات قلبه أو قُتل.

العتمة تُغطي أرجاء الدنيا، اعتاد ككل الناس في بلدتنا على انقطاع تيار الكهرباء لساعاتٍ خاصةٍ في ليالي الشتاء الممطرة، مياه الأمطار تُتلف أسلاك الكهرباء المعلقة في الهواء واصلةً بين الأعمدة الحديدية والبيوت.

الهاتفُ المحمولُ بلا قيمةٍ هذه الليلة، "الشبكة مقطوعة"، يُقال إنهم يمنعون مظاهرات الشباب المُتأججة في ميادين العاصمة بقطع كل الاتصالات وشبكة الإنترنت.

الأمر برمته لا يعنيه، الأهم الآن أن يطمئن على أن الدنيا لم تقرر طرد أمه من ضيافتها، أو أن أمه ملَّت العراك، وقرَّرت الاستسلام.

يسمع من وراء النافذة بعض الأطفال يجوبون الشوارع متهكمين على ما يتردد من أنباء منذ أيام، يسمعهم يهتفون بالتتابع وسط المطر: "الشعب.. يريد.. البت هيام المايصه".

يبتسم ربع ابتسامةٍ لسماعه اسم هيام المعروفة في كل أرجاء القرية بعهرها وسوء سيرتها.

ينتبه لأمه تُحرك شفتيْها بعناءٍ، يرفع رأسها فوق ذراعه محاولًا أن يستنطقها ليعرفَ كيف تشعر وكم حجم الألم.

أخبره الطبيبُ منذ أيامٍ أن يُخرج أمه من المستشفى لتقضي ما تبقى لها من أيامٍ أو ساعاتٍ أو حتى شهور في بيتها وعلى سريرها، شيخ الجامع أفتاه بألا يُنصتَ كثيرًا لأقوال الأطباء، فلو أراد الله أن يحييها مائة عامٍ فوق عمرها فسوف تبقى.

أمه تنطق كلماتٍ ربما كانت الأخيرة، يُحاول أن يتبين معناها أو أن يربط إحداها بأخرى ربما يخرج بما يفيده في فهمها.

يسمعها "أو ويكأنه كذلك" تتحدث إليه "لسانك، بيتك، فتنة، راضية، حبيبي يا رسول الله".

إنها تحتضر، يُمسك بهاتفه المحمول ليتحدث إلى الطبيب، ينتبه مجددًا لانعدام قدرة هاتفه على الاتصال، ليس في بيتهم هاتفٌ أرضي، استغنى عنه الكثيرون بعد انتشار الهواتف المحمولة ترشيدًا للنفقات.

يجوبُ الشوارع راكضًا في اتجاه الوحدة الصحية، آخرون يهرولون في نفس الوقت وفي اتجاهاتٍ مختلفةٍ.

الأطفال يعدلون هتافهم الساخر: "غفرا النقطه.. لابسين جلاليبهم .. هاربين"

الوحدة الصحية خاوية تمامًا، حتى الحارس أغلق بابها بالقفل والجنزير واختفى.

يُواصل ركضه حتى بقالة عم عزوز، يطلب إجراء مكالمة من الهاتف الأرضي، الطبيب لا يُجيب، طبيبٌ آخر لا يُجيب، الثالث يطلب منه أن يأتيه بأمه في المدينة لأنه لن يستطيعَ المجازفة والتحرك بسيارته في ظل الأحداث المُبهمة والفوضى العارمة.

يعودُ إلى البيت ليصحب أمه إلى طبيب المدينة القريبة نسبيًّا من قريتهم، نظر إليها ونظرت إليه، وجدها كمن تخلصت من كل آلامها وتاريخ مرضها، كانت ضاحكةً مستبشرةً، كانت راضيةً مرضيةً.
احتضنت يده وأقلعت روحُها إلى حيث يرحل الطيبون.
سلاح الغفرا في كل مكان، وسلاح الأشقياء خرج من مدفنه تحت ادعاء حماية الناس ومحاربة من سرقوا سلاح الحكومة، البلدة كلها باتت مختبئةً في جحورها تنتفض مع صوت كل طلقةٍ في الهواء أو ربما كانت في المليان.
جلس محتضنًا خوفه ودموعه وحسرته وجسد أمه.
لم يستطع أن يدفنها ليلتها.
في اليوم التالي استأجر بعضًا من الصبية والرجال ليحملوا معه النعش ويصلوا صلاة الجنازة.
لم يستطع بعدها قبول الثورة أو تقبلها.

(16)
التَّقْوِيمُ الهِجْرِيُّ الكُومُونَارِي

أُمارس هوايتي المتوارثة في عائلتي جيلًا من وراء جيلٍ، أبي علَّمني ما تعلَّمه عن جدي، ذلك الذي تعلَّمه عن أبيه، عن....، .....، أُمسك بأصابع صغيري في مسيرتي اليومية متجولًا بين طرقات بلدتنا كوم النوم، أتحسس أخبار الناس من دون تنصُّتٍ أو وقاحة، أُلقي السلام على قبور الأجداد، أُراقب السوق، أُوزع التحايا على الغيطان، أتحسس اجتماعات الأعيان، أحتسي قهوتي في مكتب البيه "كوموستابل نقطة الشرطة"، أعودُ المرضى في مشفانا الصغير وأُظهر

احترامي للطبيب غير الكوموناري الأصل ثم أحطّ بكلِّ ما في جُعبتي الدماغية على مقعدي الدائم بمقهى "كومانور"، أُطعم الأوراق التي تعَهدها أبي ومن قبله جدودي، وأوصاني مع الكومانوريين بأن أستكمل مسيرة الحفظ والعناية والتأريخ بها وعليها.
وبعد كل شيء وقبله، أمرُّ على مكتب البريد، أسأل "عم حنطور" الساعي عن أية رسالة تخصُّني، وأستقبل منه كل يوم ذات الإجابة المازحة: "يا ابني بقالك سنين بتبعت جوابات، ومفيش مرة حد رد عليك، وفر سؤالك ولو حصلت المعجزة في يوم من الأيام وجالك رد هجيلك لحد دارك وأبلغك".
الكل يعلم بمن فيهم "عم حنطور" والأغراب المتعاقبون على العمل ببلدتنا بأن الكومانوريين لم يتوقفوا يومًا عن التأريخ لواقعهم، ولكل زمنٍ أدواته، ولكلِّ عصرٍ ما يستحق ويستوجب التدوين.

****

كانت عائلتي منذ زمن الإله كومانور متعهدةً بالأمر، هكذا كانت وصيةُ جدي الأكبر، أن نحمل الحقيقة على أكتافنا ليخطط الكومانوريون مستقبلهم من حروفِ ماضيهم.
لا يعرف أحدٌ حقيقة النبت الأصيل لعائلتي سوى من حمل شعلة التأريخ منا، المعروف بين الناس في كلّ عصرٍ أننا ننحدرُ من سلسال العجوز الساحر وزير الإله كومانور، فأسمانا الناس بالعجايزة.
أزعجني كثيرًا أن أعمل على تكديس الأوراق المؤرِّخة لحكايات كوم النور، تمامًا كنفس الشكل والأسلوب الذي اتبعه أسلافي.
قرَّرت أن أختلف، أن أمنح التأريخ جناحًا للتحليق في براح الإدراك، وأن أحثه بأن يحبو أبعد من محدودية المكان والزمان.
أعدتُ صياغة ملمحٍ من تاريخنا القديم، متشابكٍ مع واقعنا القريب، محمولٍ على نعوش الحكي الأدبي، أو لأقل بأنيٍ هكذا استخلصت مفهومًا لفقه الاختلاف عما اعتاد عليه أجدادي.
أرسلتُ حكايات تاريخنا بالبريد منذ سنواتٍ إلى عددٍ من دور النشر المعروفة، وإن كنتم تقرأون هذه السطور الآن فاعلموا يقينًا أن "عم حنطور" قد جاءني داري ليمنحني أول رسالةٍ غير كومانورية في تاريخ عائلتي تحمل بين سطورها إفادةً بقبول أحدهم نشر ملمحٍ من تاريخ كوم النور على الناس.
وإن كنتم كذلك، فإني سأمنحكم انفرادًا حصريًّا لم يعرفه بشرٌ سوى المنتخَبين من عائلتي لتدوين التاريخ عبر مئات السنين الفائتة.
"إن جدي هو ذاته الرسول الطائر، ذلك الذي ربَّاه العجوز الساحر وزير الملك ليحمل رسالة ربوبيته ودعوته إلى أهل السماء لعبادة رب الأرض كومانور".
نعم، لم ينفذ العجوز الوزير أمر كومانور بإلقاء الرسول من أعلى قمة الجبل المقدس ليخفي عن الناس عجزه عن أن يكون إلهًا، فعمد إلى مواراته عن الجميع لسنواتٍ، واختار له اسمًا ينتهي بانتسابه إليه، وعهد إليه بتلك المهمة المقدسة، كي ينقل الحياة إلى الحياة، ويُخفي الحياة عن الموت كي لا تموت.
وسوف أمنحكم سرًّا إضافيًّا لأني مُمتنٌّ لاهتمامكم لمعرفة سرِّ قريتنا المُمتد:
إن عائلتي تؤمن تمام الإيمان وتعتقد تمام الاعتقاد بأن جدنا الرسول لم يمتْ، وبأنه يمنحنا من حينٍ إلى حينٍ نفحةً من نفحات الماضي المُختبئة تحت بيوتنا، وبأنه سيخرج علينا يومًا من مملكته المخفية- هابطًا من السماء أو مبعوثًا من تحت الأرض- تلك التي انتخبها له العجوز الساحر، لينقذنا من مفهوم الدولة، ويصنع منا وطنًا موصولًا بالسماء غير قابلٍ للتأريخ.

****

تأزمت عَلاقة بلدتنا كوم النور بالدولة، الإرث العدائي بات مع انتشار ألوان التواصل المجتمعي والإعلامي مادةً خَصبة لتهكم الكثيرين من مباراةٍ تتحوَّل أحيانًا لمبارزةٍ لا تتوقف بين السُلطة وفلاحين يُعادون الحكومات على تعاقبها ويرغبون منذ زمنٍ في الاستقلال.
في اجتماعٍ أمني غير تقليدي، ضم كلَّ عناصر الجهات المُراقِبة والحافظة لأمن البلاد، اتخذت الحكومة حزمةً من القرارات الصارمة والتي كُلف جهاز الأمن الأول بمتابعة تنفيذها بكل الوسائل وأهمها:
"تغيير اسم "كوم النور" إلى "كوم الطور"، تجريم التنقيب أو الحفر بحثًا عن آثارٍ الأجداد، إغلاق الجامع الكبير واعتباره من المباني الأثرية، مع تكفل الدولة ببناء مسجد يفوقه أناقةً واتساعًا".
وانتظر الجميع قيام القيامة، فأغلب الظن أن الأعيان والأحرار من الكومونياريين لن يرضخوا لقرارات من شأنها طمس الأمل وإحراق التاريخ وتغييب الانتماء والهوية.
الدولة مُمثلةً في جنود الأمن يتخذون مواقعهم في سياجٍ مخططٍ ومُحكمٍ حول قريتنا، المؤسسة الدينية الكبرى تُعلن عن قيام فضيلة الشيخ الأكبر وبصحبتِه قداسة البابا الأعظم في الدولة بزيارة كوم الطور، وأنباء موجهة تنطلق في الغيطان والأسواق بأن الرئيس سيمرُّ على بلدتنا في طريقه إلى قضاء عطلته بأطراف البلاد الساحلية.
وفي زيارة الرئيس فعْلُ السِّحر عند الجميع، إذ ضجَّت شوارع البلدة بكلِّ الأطياف إلا من أهلها، الأمن يحتل كل ذرة ترابٍ في الأزقة والأجران، شيوخٌ مُعممون، ورهبانٌ يجوبون الشوارع بصلبانهم ينشرون السماحة والمحبة، عمالٌ من كل تخصصات الصيانة والإصلاح والكهرباء ورصف الطُرق يُغيرون ملامح اللوحة الأزلية ويُلونوها بألوانٍ زاهيةٍ لم يعهدها الناس، العُمالُ يؤكدون بقرب الانتهاء من بناء الجامع الجديد وتجهيزه للافتتاح في يوم الزيارة المُباركة، ويؤكدون كذلك بأنه مُزود بمكيفاتٍ للهواء ،ومبرداتٍ للمياه، وحماماتٍ إفرنجية، ومصابيح كريستالية الصُّنع.
عرباتٌ عسكريةٌ تحمل صناديقَ غذائيةً تُوزع اللحوم والمؤن على الناس على سبيل الإهداء.

****

بدا الأمرُ حتميًّا، فانعقد اجتماعٌ كومونياري فريدٌ وشديد السرية، ضمَّ كبير كل عائلة من عائلات كوم النور مع تجنب دعوة العمدة للحضور، ودُعيت إليه لأشهد وأُدون ما ستسفر عنه المباحثات، اتخذ الأعيانُ القرار الأصعب والأهم والأكثر جرأةً في تاريخ بلدتنا، والمُلزم لكل واحدٍ من الحاضرين بمتابعة تنفيذه في مُحيط نفوذه وتأثيره.

****

مكبِّرات الصوت تجوب شوارع بلدتنا زاعقةً، تُعلن قرارًا أمنيًّا جديدًا:
"يا أهل كوم الطور الكرام، سيتم إغلاقُ مداخل البلدة لحين انتهاء الزيارة والفعاليات، وسيُسمح بالخروج لمن أراده لطارئ يخُصه، لكن لن يستطيعَ أحدٌ من المُغادرين العودة إلى داره إلا بعد انتهاء زيارة الرئيس والشيخ الأكبر والبابا الأعظم.
نفذ الكومونياريون تمامًا بمن فيهم الأعيان قرار مجلس الأعيان.
خرج الجميع.
ولم يرجعْ أحِدٌ.

وبقيتُ عالقًا مع أطلال كوم النور "تنفيذًا لطلب الأعيان" أنتظر زيارة الرئيس والشيخ الأكبر والبابا الأعظم وافتتاح الجامع الجديد.

****

كنتُ الحضور الوحيد الأوحد من الكومونياريين في احتفالية الرئيس الكُبرى، فبِتُّ شاهدًا على منح كتاب التاريخ الكوموناري لحظة انتصاره على قاتليه، حينما يحلُّ الضيفُ من دون مُضيفٍ.

****

سوف أمنحكم الخبرَ الأخير، ولتصنعوا منه نهايةً مؤقتةً لهذا الذي بين أيديكم:
"أنا الآن أُمسك بيد ولدي مغادرًا "كوم الطور"، أقصد "كوم النور"، أحملُ على كتفي الصغير مخطوطات أجدادي، ونسخة أصلية من الحكايات التي بين أيديكم، مُلقنًا إياه ما تعلمته عن أبي:
"لا تكتب التاريخ في وجود الملك، إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوا تاريخها، واضطهدوا مؤرخيها".
الآن، أبدأ التقويم الهجري الكوموناري.
لا تقلقوا، سأرحل إلى حيث هاجر الكومونياريون، أبدأ معهم فعل التأريخ سرًّا، حتى يحين قدَر العودة.
إلى لقاءٍ لعلَّه قريبٌ، يخرج فيه جَدِّي الرسولُ الطائرُ من مخبئهِ الزمني الموقوت ليُطهر التاريخَ ويُنيرَ القادم.